

سُورَةُ سَبَأٍ

حين تُمتَحَن النِّعْمَةُ في ضمير الإنسان

رحلةٌ في الشكر والجدود، ومآلات الحضارات،
وانكشاف القُوَّة أمام سلطان الله

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ سَبَأٍ

حين تُمتَحِنُ النِّعْمَةُ فِي ضَمِيرِ الْإِنْسَانِ

رحلةٌ في الشكر والحمد، ومآلات الحضارات، وانكشاف القوة أمام سلطان الله

تأليف : رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليست سورة سبأ حديثاً عن حضارة مضت فحسب، بل عن ذلك الامتحان الخفي الذي يتكرر كلما امتلأت يد الإنسان بالنعم: ماذا تفعل العطايا بالقلب؟ هل تقوده إلى المنعم، أم تحجبه عنه؟ هل يصير أكثر تواضعاً كلما اتسعت مملكته، أم يتوهم أنه صاحب النعمة ومنشئها وحارس بقائها؟

إن النعمة لا تمتحن فقر الإنسان، بل تمتحن ذاكرته. والشدة قد تدفعه إلى باب الله اضطراراً، أما الرخاء فيكشف هل كان يعرف الباب حقاً، أم لم يكن يطرقه إلا حين أغلقت في وجهه أبواب الأرض.

في هذه السورة يقف داود وسليمان عليهما السلام في جهة، وتقف سبأ في جهة أخرى. الجميع نالوا من الفضل، ولكن العطية الواحدة لا تنتج المصير نفسه؛ لأن قيمة النعمة لا تكمن فيما دخل اليد، بل فيما أحدثه في القلب. داود تلقى الجبال والطير والحديد، فكان لسان الوجود يسبح معه. وسليمان تلقى الريح والجن والقطر، فعاش داخل التكليف لا داخل الغرور. أما سبأ فتلقّت الجنات والأمن وتقارب الأسفار، ثم أعرضت؛ فتحولت الجنان إلى خبر، والاجتماع إلى تشتت، والحضارة إلى حكاية يتعظ بها من بقي.

وهكذا لا تسأل السورة: كم أعطاك الله؟

بل تسألك: ماذا صنعت بما أعطاك؟

المحطة الأولى

الحمد الذي يسبق الحكاية ويعقبها

تبدأ السورة من المقام الذي ينبغي أن تنتهي إليه كل معرفة، وكل حضارة، وكل نعمة:
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

قبل أن تحدثك السورة عن داود وسليمان وسبأ، وعن الأغنياء والمترفين والمستضعفين، تضع الحقيقة الكبرى في صدر المشهد: الحمد لله.

كأنها تقول: لا تدخل إلى عالم النعمة قبل أن تعرف صاحبها، ولا تنظر إلى اتساع الملك فتنسى المالك، ولا تنبهر بما في يد الإنسان؛ فها في السماوات وما في الأرض لم يخرج لحظة واحدة عن سلطان الله.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

ليست اللام هنا لام امتلاك جامد فحسب، بل هي لام تُسقط أوهام الإنسان جميعاً. ما تظنه ملكك إنما هو عارية جارية في يدك. الجسد الذي تتحرك به، والعقل الذي تفكر به، واللسان الذي تعبّر به، والمال الذي تجمع، والمكانة التي يلتفت الناس بسببها إليك؛ كل ذلك لله قبل أن يصل إليك، والله حين يكون معك، والله بعد أن يغادر. نحن لا نملك الأشياء امتلاكاً مطلقاً؛ نحن نُستأمن عليها زمناً، ثم نمضي وتبقى هي شاهدة علينا.

ولذلك كان الحمد أنسب أبواب السورة؛ لأن الحمد معرفةٌ بحقّ المنعم قبل أن يكون كلمةً على اللسان. حين يقول القلب: الحمد لله، فإنه يعترف ضمناً: لم أصنع وجودي، ولم أخلق قدراتي، ولم أفتح لنفسي أبواب الأقدار، ولم أستخرج النعمة من العدم. الحمد هو سقوط دعوى الاستقلال.

وهو أن ترى يد الله وراء كل ما ظننت أنك بلغت بقتوك وحدك. ثم تقول الآية: (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ).

في الدنيا قد يحمّد الإنسان ربه على ما وافق رغبته، لكنه في الآخرة يرى الحكمة كاملة؛ يرى لماذا أعطى، ولماذا مُنع، ولماذا تأخر عنه ما أحب، ولماذا انصرف عنه ما ظنه خيراً. هناك ينكشف الغطاء عن هندسة الرحمة في حياته، فيعلم أن لله الحمد حتى في الأبواب التي بكى طويلاً عند إغلاقها.

في الدنيا نحمد ونحن نرى طرفاً من الصورة، وفي الآخرة نحمد حين تكتمل الصورة.

في الدنيا يمتزج الحمد بالصبر، وفي الآخرة يصير الحمد نعيماً خالصاً.

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

حكيم في تدبير ما يظهر، خبير بما يختبئ في الأعماق. يعلم ما يصلح لك، ويعلم ما تفعله النعمة بقلبك قبل أن تأتيك. وقد يمنعك لا لبخل — تعالى الله عن ذلك — ولكن لأن العطاء الذي تطلبه قد يكون أكبر من قلبك، فيكسر فيه مقام العبودية.

كم من إنسان حُفِظَ بالحرمان، وكم من إنسان هلك حين فُتِحَتْ له الخزائن!

المحطة الثانية

لا تسقط ورقةً من ذاكرة الله
(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ
الْغَفُورُ).

ترسم الآية حركة الكون في أربعة اتجاهات: ما يلىج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها. حركة لا تهدأ، وأحداث لا يحصيها بشر، وذرات وأمطار ويزور وأرواح وأعمال ودعوات؛ ومع ذلك لا يضيع منها شيء عن علم الله. يعلم البذرة وهي تغيب في ظلمة التراب، كما يعلم الدمع وهو يعود إلى جوف العين كيلا يراه أحد. يعلم الميت حين يُوارى، ويعلم الألم حين يُدفن في الصدر. يعلم ما ينزل من مطر ووجي ورحمة وأقدار، وما يعرج من ملائكة وأعمال وأنات ودعوات. ولعل في قوله: (مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) موساةً لكل من خاف أن يضيع ما دفته الزمن؛ فالأشياء قد تغيب عن عينك، لكنها لا تغيب عن علم الله. قد يُدفن جهدك فلا يراه الناس، وقد يُدفن حقك تحت ركام الظلم، وقد تُدفن أمنيته سنوات طويلة، لكن الذي يعلم البذرة في التراب قادر على أن يخرج من المدفون حياة. ولم تختم الآية بـ«العليم» وحده، بل قالت:

(وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ).

لأن الإحاطة الكاملة لو كانت علماً مجرداً لأرعبت القلب؛ فالله يعلم خفاياك التي تخجل أن يراها أقرب الناس إليك، لكنه سبحانه مع كمال علمه رحيم غفور. يعلم ضعفك فلا يعاجلك، ويعلم عثرتك فيفتح لك طريق العودة، ويعلم صدق انكسارك ولو عجز لسانك عن الاعتذار.

إن علم الله ليس عيناً تتعقبك لتوقع بك، بل هو — مع عدله وسلطانه — علم الرحيم الذي يعرف جرحك، وعلم الغفور الذي لا تغلق خطيئتك دونه باب الرجاء.

المحطة الثالثة

الساعة التي أنكروها لأنها تهدم وهم الإفلات
(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ
مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ).

لم يكن إنكار الساعة مشكلةً فكريةً مجردة، بل كان رغبةً نفسيةً في حياة بلا حساب.
فالإنسان الذي يريد أن يستمتع بالقوة دون مسؤولية، وبالنعمة دون شكر، وبالظلم دون
قصاص، يزججه أن يكون وراء الستار موعداً تفتح فيه الملفات كلها.
إنكار القيامة محاولة لمنح الخطيئة مستقبلاً آمناً.
ولهذا جاء الجواب بالقسم:

(قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ).

«بلى» تهدم النفي، والقسم يقطع التردد، واللام والنون تشدان المعنى حتى لا تبقى فيه فجوة
للهرب. ستأتي الساعة، لا لأن احتمالات التاريخ تقود إليها فحسب، بل لأن ربك وعد
بها، ووعد الله أثبت من الأرض التي تقف عليها.
ثم يأتي وصفه سبحانه: (عَالِمِ الْغَيْبِ)؛ لأن الذي سيبعث الخلق لا يحتاج إلى البحث عن
آثارهم، ولا إلى جمع معلومات ضاعت منه. لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر منها ولا
أكبر.

كم يطمئن المظلوم حين يسمع: (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) !
لن تضيع كلمة قيلت لتسويهك، ولا دمعة نزلت في وحدتك، ولا معروف صنعته ثم نسى،
ولا لحظة قاومت فيها معصيةً ولم يصفق لك أحد. موازين الناس قد تهمل الذرات؛ لأنهم
لا يرون إلا الأفعال الكبيرة والنتائج الظاهرة، أما ميزان الله فتدخل فيه ارتعاشة القلب،
وصدق النية، والخطوة الصغيرة التي لم يعلم بها سواه.
وقد ينجو المجرم من ذاكرة المجتمع، لكنه لا يخرج من علم الله.
وقد يختفي الصالح من كتب التاريخ، لكنه مكتوب في كتاب لا يسقط اسماً ولا ينسى
أثراً.

المحطة الرابعة

العدالة التي تُعيد إلى العمل معناه
(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي
آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ).

لا تأتي الساعة لمجرد إنهاء العالم، بل لإظهار معناه.
لو لم تكن آخرة لتساوت في ظاهر المصير يد مسحت دمة یتیم ويد سفكت دم بريء،
ولا ستوى من أفنى عمره في إصلاح الأرض بمن ملأها فساداً ثم مات على فراشه. ولكن
الله الذي أقام الكون بالحق لا يترك رحلة الإنسان تنتهي إلى العتب.
(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

الإيمان يعيد بناء القلب، والعمل الصالح يترجم البناء في الأرض. فلا يكفي نور لا يخرج
من الضمير، ولا حركة لا تستمد وجهتها من الله. الإيمان بلا أثر دعوى ناقصة، والعمل
بلا إيمان قد يفقد بوصلته ووجهته الأخروية.

ولهم (مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).
بدأ بالمغفرة قبل الرزق؛ لأن الإنسان لا يهنأ بالنعيم حتى يطمئن إلى أن ماضيه لم يعد
يطارده. المغفرة تطهر الذاكرة، ثم يأتي الرزق الكريم فلا خوف من زواله، ولا منة فيه
من أحد، ولا تعب يكدر صفاءه.

وفي الجهة الأخرى أناس لم يكتفوا بالإعراض، بل (سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)؛ بذلوا
جهدهم ليصدوا الحق، كأنهم يستطيعون أن يعجزوا إرادة الله أو يفلتوا من سلطانه. وهذه
صورة تتكرر في كل عصر: يظن أصحاب القوة أن امتلاك المناير والمؤسسات والأموال
يمكنهم من إطفاء الحقيقة.

لكن الباطل قد يؤخر ظهور الحق في أعين الناس، ولا يستطيع أن يبطله عند الله.

المحطة الخامسة

حين يرى أهل العلم أن الوحي هو الحقيقة
(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ).

لم تقل الآية: «ويعلم الذين أوتوا العلم» فحسب، بل قالت: (وَيَرَى). كأن الوحي عندهم لم يعد معلومةً محفوظة، بل صار مشهداً حاضراً وبصيرةً ترى. العلم الحقيقي لا يكس بين العقل والنص حواجز جديدة؛ بل يزيل الحجب حتى يرى الإنسان أن ما أنزله الله هو الحق. وكل معرفة لا تقود صاحبها إلى مزيد من التواضع أمام الوحي تحمل في داخلها عطفاً. قد تزيد صاحبها قدرةً على الجدل، لكنها لا تمنحه نور الرؤية. فالعلم في المقياس القرآني ليس كثرة ما تعرف فقط، بل سلامة الجهة التي تقودك إليها معرفتك.
(الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ).

هو الحق لا لأنه وافق أذواق الناس، ولا لأن حضارة ما صادقت عليه، ولا لأن الزمن أثبت بعض إشارات؛ بل لأنه نزل من ربك. مصدره هو برهانه الأعلى. والإنسان لا يحاكم كلام الخالق إلى مزاج المخلوق، وإنما يصحح مزاجه بنور كلام الله.
ثم إن هذا الحق (يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

هو صراط العزيز؛ فلا يذل من سلكه وإن بدا في أعين الناس مستضعفاً. وهو صراط الحميد؛ فلا يقوده إلى قبح أو ظلم أو خواء. تجتمع فيه العزة والطهارة؛ عزة لا تتحول إلى طغيان، وحمد لا يتحول إلى خنوع.

إن العزة التي لا تهديها محامد الأخلاق تصير بطشاً، والحمد الذي لا تحرسه العزة قد يتحول إلى استسلام للباطل. أما طريق الله فيجمع قوة الموقف إلى جمال الروح.

المحطة السادسة

السخرية من البعث وعى المسافة القريبة

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّا كُنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ).

هكذا يتحدث الاستكبار حين يعجز عن الحجة: يحوّل الحقيقة إلى مادة للسخرية، والرسول إلى «رجل»، والوعد الإلهي إلى خبر مستغرب. إنهم لا يذكرون اسمه ﷺ، وكأنّ التجاهل اللفظي قادر على تقليل شأن الرسالة.

(هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ).

في العبارة نبرة استهزاء، لكن السخرية لا تنقض برهاناً. وهي كثيراً ما تكون القناع الأخير الذي يرتديه العاجز حين لا يستطيع مواجهة الفكرة. يضحك كي لا يفكر، ويهزأ كي لا يسمع الصوت الذي يتحرك في داخله.

لقد رأوا تمزق الأجساد، ولم يروا قدرة من أنشأها أول مرة. قاسوا قدرة الله على عجزهم؛ لأنّ الإنسان إذا غفل عن عظمة الخالق صار المستحيل عنده هو كل ما لا يستطيعه بنفسه.

ثم حصروا الأمر بين تهمتين:

(أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ).

إما كاذب وإما مجنون! ولم يتركوا في تقسيمهم موضعاً للحقيقة؛ لأنّ القلب حين يقرر الرفض أولاً يصنع بعد ذلك الأسئلة التي تبرر رفضه. ليست كل شبهة وليدة بحث صادق؛ فبعض الشبهات حراس يقيمهم الهوى على أبواب القلب حتى لا يدخله النور. وجاء الرد:

(بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ).

لم يكن الخلل في الرسول، بل في البصيرة التي تنظر إليه. والذي يتهم الدليل قد يكون هو الغارق في الضلال. وما أبعد ضلال من يرى الخلق الأول ثم يستبعد الخلق الجديد، ويرى الموت كل يوم ثم يظن أن القصة انتهت عند القبر.

الحطة السابعة

الإنسان المحاصر بملكوت الله

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَيْئًا خَسِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ
أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ).

ما أغرب الإنسان! يعيش بين أرضٍ تحمله وسماءٍ تطلُّه، وكلتاها في قبضة الله، ثم يتصرف كأن له منفذاً خارج السلطان الإلهي.

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ).

إنهم محاطون بالآيات، لكن القرب الشديد قد يصنع الغفلة. يعتاد الإنسان السماء حتى لا تعود تدهشه، ويطأ الأرض كل يوم فلا يسأل من أمسكها، ويستيقظ على انتظام الوجود فيحسب أن النظام يعمل بنفسه.

والعادة حجاب كثيف؛ تجعل المعجزة اليومية شيئاً عادياً.

لو توقفت الأرض لحظة عن طمأنينتها، أو انفرط من السماء جزء مما أمسكه الله، لانكشفت هشاشة القوة البشرية كلها. الحضارات التي نتعالى بآلاتها لا تزال قائمة فوق قشرة من الأرض، وتحت سقف من السماء، لا تملك أن تضمن سكون الأول ولا تماسك الثاني.

لكن الآية لا تريد أن تصنع ذعراً أجوف، بل يقظةً تعيد العبد إلى مقامه:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ).

لم تقل: لكل عقل ذكي، بل لكل عبد منيب؛ لأن الآيات لا تفتح أسرارها للعقل المتكبر، مهما بلغت حدته، وإنما تتجلى لمن يرجع إلى الله. الإنابة ليست حركة قدم، بل عودة البصيرة إلى مركزها؛ أن تكفّ النفس عن الدوران حول ذاتها، وتدرك أنها عبد يعيش في ملك الله، بنعمة الله، وإلى الله مصيره.

وهنا تنهى السورة للانتقال من الذين كذبوا بقدرة الله إلى عبدٍ أناب إليه، ومن السنة السخرية إلى صوت الجبال وهي تردد التسبيح مع داود عليه السلام؛ لتريك أن الكون كله يعرف طريق الحمد، وأن الإنسان وحده قد يختار أن يكون النشاز في هذا النشيد العظيم.

المحطة الثامنة

حين تصوير الجبال رفيقاً في التسبيح

بعد أن عرضت السورة صورة الإنسان الذي أحاطت به آيات السماء والأرض، ثم بقي غافلاً عنها، تنقلنا إلى قلب آخر: قلب داود عليه السلام؛ ذلك العبد الذي لم تكن الآيات حوله أشياء صامتة، بل كانت رفاقاً في الحمد.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَ الْحَدِيدِ).

قال سبحانه: (مِنَّا فَضْلًا).

وما أجمل أن تبدأ حكاية النعمة من هذه الكلمة: (مِنَّا). ليست العبقري وحدها، ولا القدرة الذاتية، ولا المصادفات المتراكمة؛ إنه فضل من الله. وكلها رِسخت «مِنَّا» في قلب المنعم عليه، نجا من فتنة «إِنَّمَا أُوتِيته على علم عندي».

كان داود ملكاً ونبيّاً، أُوتِي القوة والحكمة وجمال الصوت، وسُخِّر له من مظاهر الكون ما لم يُسَخَّر لغيره، ومع ذلك لم تعرضه السورة بوصفه مالِكاً مستقلاً، بل متلقياً للفضل.

إن أول أبواب الشكر أن تعرف جهة النعمة.

فالنعمة التي ينقطع في وعي صاحبها طريقها إلى الله تتحول إلى وثن؛ يعبد الإنسان بها نفسه، ويفتن بما في يده حتى ينسى اليد التي أعطته.

(يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ).

ما الذي كان في تسبيح داود حتى استحالت الجبال من حوله جوقَةً من الخشوع، وصارت الطير تردد معه الحمد؟

لقد كان صوتاً يخرج من قلب امتلاً بالله، فلم يعد التسبيح فيه حروفاً تمر باللسان، بل أصبح حالاً تنفذ إلى الوجود. وإذا صدق القلب في ذكر الله امتد أثر ذكره إلى ما حوله؛ لأن الأرواح الصادقة تمنح الكلمات حياة لا تمنحها البلاغة وحدها.

كان داود يسبح، فتؤوب الجبال معه.

الجبال التي تبدو في أعيننا رمزاً للصمت كانت تعرف ربها، والطير التي لا نفهم لغاتها كانت تشارك نبي الله عبادته. وحده الإنسان قد يُمنح البيان، ثم يستخدم بيانه في الغفلة؛ وتُمنح له القدرة على التسبيح، ثم تمر به الجبال والطير وهي أسبق منه إلى معرفة الخالق.

وفي المشهد مواساة لكل ذاكِ يستوحش من قلة السالكين: لست وحدك حين تذكر الله.
هذا الوجود من حولك قائم على التسبيح، وإنْ مُجِبَتْ أذنك عن سماعه. حين تقول:
سبحان الله، فإنك لا تبدأ نشيداً جديداً، بل تلتحق بالنشيد الأزلي الذي تردده السماوات
والأرض ومن فيهن.

(وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ).

ألا نرى الله لداود الحديد، لكنه قبل ذلك ألا نرى قلب داود للذكر.
وما قيمة أن يلين الحديد في اليد إذا قسا القلب في الصدر؟
قد يمتلك الإنسان القدرة على تطويع المادة، ثم يعجز عن تطويع شهوته. وقد يغيّر وجه
الأرض بآلاته، لكنه لا يستطيع أن يغيّر خُلُقاً واحداً من أخلاقه. أما داود فقد اجتمع له
السلطان على المادة والخضوع لرب المادة؛ فكانت القوة في يده، ولم يكن هو في يدها.
وهذا هو الفارق بين القوة المؤمنة والقوة المتجبرة: القوة المؤمنة ترى ما أُعطيته تكليفاً،
والقوة المتجبرة تراه تفويضاً مفتوحاً للعبث.

الحطة التاسعة

صناعة الدروع وتقدير الحلقات

(أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

لم يقل الله لداود: لقد أنت لك الحديد فاصنع منه تيجاناً تعلّي بها مظهرك، أو قصوراً تظهر بها سعة ملكك؛ وإنما أمره أن يصنع سابغات: دروعاً واسعة تقي الناس بأس الحرب. هكذا يتحول الفضل في يد العبد الشاكر إلى حماية للآخرين.

وكل نعمة لا تمتد منها رحمة إلى الخلق تظل ناقصة الأثر في صاحبها. العلم درع من الجهل، والمال درع من الفاقة، والكلمة الصادقة درع من التضليل، والسلطان العادل درع يحجز القوي عن الضعيف. ولكل إنسان حديد لأنه الله له؛ موهبة أو قدرة أو مكانة، والسؤال: أيصنع منه درعاً يحمي، أم سيفاً يستطيل به على الناس؟
(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ).

حتى الدروع تحتاج إلى ميزان. لا تجعل الحلقات ضيقة فتؤذي، ولا واسعة فتترك الثغرات. فالإتقان جزء من الشكر؛ لأن من عرف أن النعمة من الله استحميا أن يخرج من يده عمل مضطرب.

إن الإيمان لا يكتفي بأن يكون مقصد العمل صالحاً بل يريد بنيته متقنة أيضاً. حسن النية لا يبرر فساد الصنعة، ونبل الهدف لا يغني عن دقة الوسيلة. في شريعة الله للروح إخلاصها، ولليد إتقانها، وللعقل تقديره وموازنته. ثم انتقل الخطاب من داود إلى الجماعة:

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا).

كأن صناعة الدرع على أهميتها ليست الغاية الأخيرة. قد يصنع المرء شيئاً نافعاً، ثم تفسد بقية حياته. ولذلك وسّع الوحي دائرة العمل من صنعة محددة إلى صلاح شامل.

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

الناس يرون الدرع بعد اكتماله، أما الله فيرى القلب وهو يصنعه؛ يرى النية، والأمانة، ومقدار الإتقان، وما خفي من غش أو إخلاص.

وهذه الرقابة لا تعطل الإبداع، بل تطهره. حين يعمل المؤمن تحت بصر الله لا يحتاج إلى أن تظل أعين الناس عليه كي يحسن. قد يغيب الرقيب البشري، لكن عين الأمانة في داخله لا تنام.

المحطة العاشرة

سليمان والريح التي عرفت طريقها
(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ
يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ).

من الحديد اللين في يد داود إلى الريح المتقادة لسليمان. تتغير صورة النعمة، ويبقى مصدرها واحداً.

كانت الريح تقطع في غدوها مسيرة شهر، وفي رواحها مسيرة شهر. تلك القوة التي لا يستطيع البشر القبض عليها، والتي تهب حيث شاء الله، أصبحت جنداً يحمل سليمان إلى حيث أمر.

لكن القرآن لا يجعلنا نقف مبهورين عند سرعة الرحلة؛ بل يعيد أبطارنا إلى صاحب التسخير. ليس سلطان سليمان هو الذي خلق الريح أو منحها قوتها. إنما الذي سخرها له هو الله. ومن ثم لا يصبح المشهد تحييداً للبشر، بل شهادةً لقدرة الرب الذي يمنح عبداً من عباده سلطاناً على بعض جنوده.

إن النعمة الكبيرة قد توهم الإنسان أنه صار استثناءً من العبودية، بينما الحق أنها تزيد عبودية. فكلما اتسعت دائرة ما سخره الله لك، اتسعت دائرة مسؤوليتك بين يديه.

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ).

أسال الله له عين النحاس المذاب، فصارت المادة الصلبة جاريةً بين يديه. وكأن السورة تعرض مملكة تتجاوب فيها عناصر الكون: حديد يلين لداود، وريح تسير لسليمان، ونحاس يسيل، وجن يعملون.

لكن هذا كله لا يخرج لحظةً عن قوله: (بِإِذْنِ رَبِّهِ).

هذه الكلمة هي الميزان الذي يمنح المشهد من الانزلاق إلى الأسطورة المنفصلة عن التوحيد. الجن يعملون، لكن بإذن الله. والريح تجري، لكن بأمر الله. والنحاس يسيل، لكن بقدرة الله. وسليمان يملك، لكنه عبد لله.

كم نحتاج إلى «إِذْنِ رَبِّهِ» في فهم أسباب الحياة!

الدواء يشفي بإذن الله، والعقل يهتدي بإذن الله، والقوة تنجح بإذن الله، والخطط تبلغ غاياتها بإذن الله. وليس معنى ذلك إهمال الأسباب، بل تحرير القلب من عبادتها. تأخذ بها بكل ما مملك، ثم لا تمنحها مقام الربوبية في نفوسنا.

وكان من الجن من يعمل بين يدي سليمان، لكنهم لم يكونوا خارج سلطان الله:
(وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ).

حتى الذين تبدو قدراتهم خارقة في أعين البشر هم مملوكون لله، محكومون بأمره، عاجزون عن الإفلات من جزائه. فما أضعف الإنسان حين يخاف مخلوقاً وينسى خالق المخلوق!

المحطة الحادية عشرة

حين تصبح الفنون عبادةً وال عمران شكرًا
(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ
دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

كانت مملكة سليمان مملكة بناء وعمل وجمال ومنفعة: محارِب للعبادة، وتماثيل مما كان
مباحًا في شريعته، وجفان عظيمة كالأحواض، وقُدور ثابتة لضخامتها.

إنها حضارة لا تعادي الجمال، ولا تفصل العبادة عن العمران، ولا ترى في الإلتقان
الديوي خصمًا للروح. فالحِراب والآنية والقُدور تجتمع في آية واحدة؛ لأن الدين لا
يجبس الإنسان في زاوية منفصلة عن الحياة. إنه يقدس وجهته، ثم يدعه يبني ويصنع
ويطعم ويحلم الوجود في حدود ما شرع الله.

المشكلة ليست في أن تعظم الحضارة، بل في أن تصغر روحها أمام منجزاتها.
وليست الفتنة في وفرة الأشياء وحدها، بل في أن ينسى الإنسان المعنى الذي ينبغي أن
تسير إليه الأشياء.

ثم يأتي الأمر الذي يلخص قصة داود وسليمان:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا).

لم يقل: قولوا شكرًا، بل قال: (اعْمَلُوا).

فالشكر في القرآن ليس انفعاليًا عابرًا عند مجيء النعمة، ولا كلمة تقال ثم يُستعمل العطاء في
معصية المعطي. الشكر عمل، ونظام حياة، وطريقة في توجيه النعم إلى مراد الله.

شكر العين ألا تتبع العورات.

وشكر اللسان ألا يتحول إلى أداة للكذب والغيبة وإيذاء الخلق.

وشكر العقل أن يطلب الحق، لا أن يصنع الحيل لتبرير الهوى.

وشكر المال أن يُمنع من الحرام، وأن يُفتح منه باب للمحتاجين.

وشكر السلطة أن تصير سبيلًا للعدل، لا سلمًا للانتقام والاستعلاء.

وشكر القلم أن ينصر الحقيقة، لا أن يزين الباطل لمن يدفع أكثر.

إن النعمة تشكر بما خلقت له. ومن استعمل نعمة الله في معصيته لم يشكرها ولو ظل لسانه يردد الحمد.

ثم تهبط الكلمة الثقيلة:

(وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ).

ما أقل الشاكرين، مع أن النعم لا تُحصى!

لأن كثيراً من الناس يشكرون عند حصول ما يحبون، أما الشكور فيظل يرى فضل الله في المنع والعطاء، وفي السعة والضيق، وفي الأيام التي فهم حكمتها والأيام التي لم يفهمها بعد. «الشكور» صيغة تحمل معنى الرسوخ والكثرة؛ ليس شاكراً مرةً حين فاجأته البشري، بل قلبٌ صار الشكر طبيعته. إذا أُعطي لم يبطر، وإذا مُنع لم يتهم ربه، وإذا قدر لم يظلم، وإذا أُثني عليه ردّ الفضل إلى الله.

والقليل هنا ليس دعوة إلى اليأس، بل دعوة إلى المنافسة: إذا كان الشاكرون قليلاً، فكن من هذا القليل.

المحطة الثانية عشرة

العصا التي أعلنت موت الملك

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

بعد مشهد الملك الواسع، والريح الجارية، والنحاس السائل، والجن العاملين، تأتي لحظة الموت.

لا ضجيج في المشهد، ولا معركة تهزم المملكة، ولا جيش يقتحم الأسوار. أمرٌ واحد من الله: (قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ).

سليمان الذي سخرت له الريح لم يستطع أن يتجاوز الأجل. والجن الذين عملوا بين يديه لم يستطيعوا اكتشاف موته. والعصا التي كان متكئاً عليها لم تحفظ جسده إلى الأبد. حين انتهى الأجل، بقي الجسد قائماً مدةً بحكمة الله، حتى جاءت دابة صغيرة من الأرض تأكل منسأته.

يا لضخامة الحقيقة التي كشفتها دابة صغيرة!

لم تحتاج السماء إلى صاعقة كي تسقط الوهم. قارض ضعيف ظل يأكل العصا في صمت، حتى انهار الجسد، وانهارت معه دعوى معرفة الجن للغيب.

وكان السورة تقول: قد يسقط الله أوهاماً كبيرة بأسباب لا يلتفت إليها أحد.

القوة التي تملأ العيون قد تكون قائمة على عصاً منخورة، والممالك التي يظن أهلها أنها أبدية قد يكون في أساسها مخلوق صغير يأكل دعائمها ببطء. نحن نرى الهيئة القائمة، ولا نرى ما يحدث في الجذور؛ أما الله فيعلم اللحظة التي ستنتهي فيها الصورة كلها.

(فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ).

سقط الجسد، فقامت الحقيقة.

وأحياناً لا تنكشف الأوهام إلا بعد سقوط ما كانت تنكئ عليه. ظل الجن يعملون في العذاب المهين، ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فيه. وبذلك يقطع القرآن الطريق على كل خرافة تمنح الجن علماً مطلقاً بما خفي. الغيب لله.

ولا نبي يعلمه استقلاً، ولا ملك، ولا جني، ولا كاهن. ولا يطلع أحد منه إلا على ما
أطلع الله عليه. فمن تعلق بمن يدعي الغيب فقد منح مخلوقاً صفةً لا تكون إلا للخالق.
وفي موت سليمان درس آخر: قد يموت الرجل العظيم وتظل الأعمال دائرة بعده وقتاً،
لكن بقاء العمل لا يعني بقاء صاحبه، كما أن موت صاحبه لا يعني موت الرسالة.
الأشخاص يعبرون، والأمانة تبقى حتى يحملها من بعدهم.
لم تكن عظمة سليمان في أنه لم يموت، بل في أنه عاش عبداً قبل أن يموت.

المحطة الثالثة عشرة

سبأ: حين أقامت النعمة عن اليمين والشمال

بعد نموذج داود وسليمان، حيث تحولت النعمة إلى شكر وعمل، تعرض السورة النموذج المقابل: أمة سبأ.

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ
بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ).

لم تكن النعمة بعيدة عن بيوتهم، بل كانت في مسكنهم. كانوا يستيقظون داخل الآية، ويمشون بين ظلالها، ويأكلون من ثمرها.

(جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ).

الخصرة تحيط بهم من الجانبين، والأرض تعطيهم من زينتها ورزقها، والماء يجري بنظام، والمجتمع يعيش في رخاء. إنها صورة حضارة اجتمع لها جمال المكان وسعة الرزق واستقرار الحياة.

لكن السورة لا تكتفي بوصف الجنتين، بل تكشف الوظيفة الروحية للرخاء:

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ).

لم يحرم الله عليهم الطيبات، ولم يطالبهم أن يهجرُوا الجنان حتى يكونوا عابدين. قال لهم: (كُلُوا). فالدين لا يعادي النعمة، وإنما يعادي الغفلة التي تنشأ حولها.

كُلُوا، ولكن تذكروا أنها (مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ).

تمتعوا، لكن لا تقطعوا الثمرة عن واهبها.

ابنوا حضارتكم، لكن لا تجعلوا البناء يحجب عنكم السماء.

الزهد ليس أن ترفض الرزق الذي ساقه الله، وإنما ألا تسمح للرزق أن يحتل الموضع المخصص لله في قلبك.

ثم جمعت الآية لهم نعمة المكان ونعمة الرب:

(بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ).

بلدة طيبة تصلح حياتهم، ورب غفور يصلح عثرتهم. طيب في الخارج، ومغفرة تنزل على الداخل. أرض تمنحهم الثمر، ورب يفتح لهم باب الرجوع إذا أخطؤوا.

وما أكرمها من معادلة: وطن طيب يسكنه الجسد، ورب غفور يسكن القلب إلى رحمته. لم يكن المطلوب منهم عصمةً لا يخطئون معها؛ فقد ذُكر الغفور، وإنما كان المطلوب ألا يحولوا الذنب إلى إقامة، وألا يقابلوا النعمة بالإعراض، وأن يعودوا كلما زلت أقدامهم. فاجتمع لا يهلك بمجرد وجود الخطأ، بل حين يفقد القدرة على التوبة، ويسمي المخود تقدماً، ويحول الفساد إلى نظام يحميه ويفخر به.

المحطة الرابعة عشرة

الإعراض الذي بدأ في القلب وانتهى في الجغرافيا
(فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَحْطٍ وَأَثَلٍ
وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ).

كلمة واحدة تختصر بداية السقوط:

(فَاعْرَضُوا).

لم تبدأ الكارثة من السد، بل من القلب. قبل أن يتصدع البناء الخارجي، تصدع البناء الداخلي. وقبل أن يتغير وجه الأرض، تغيرت وجهة الإنسان. الإعراض ليس دائماً إنكاراً معلناً؛ قد يكون أن يعيش الإنسان وسط نعم الله دون أن يلتفت إليه، وأن يستخدم عطايه كل يوم ثم لا يسأل عما يحبه المنعم. قد تبقى كلمات الحمد على اللسان، بينما تتجه الحياة كلها بعيداً عن الله.

والأمم لا تسقط فجأةً كما يبدو للناظر المتأخر. هناك شقوق صغيرة تبدأ في الضمير: ظلم يُسأخ معه، وفساد يصبح مألوفاً، ونعمة تُنسب إلى غير واهبها، ومصلحون تُسكت أصواتهم، ومترفون يعتقدون أن الرخاء عقد أبدي لا ينتهي.

ثم يأتي اليوم الذي يظهر فيه على الجدران ما كان مستتراً في الأرواح.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ).

الماء الذي كان أساس ازدهارهم صار أداة انهيارهم. والنعمة حين يُساء التعامل معها قد تتحول من حاملة للحياة إلى قوة تقتلعها. ليس لأن الأشياء تغير طبيعتها وحدها، بل لأن الإنسان غير موقعه من أمر الله.

كم من مال كان باب ستر، ثم صار باب هلاك!

وكم من سلطة كان يمكن أن تقيم عدلاً، فتحولت إلى سبب للسقوط!

وكم من معرفة كان يمكن أن تهدي صاحبها، فصارت وقوداً لكبريائه!

ليس كل ما يرفع الحضارات يعجز عن إسقاطها؛ فقد يكون سبب القوة نفسه موضع الانهيار إذا انفصل عن الشكر والعدل.

ثم جاء التبديل:

(وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ ذَوَاتِي أُكُلٍ نَحْطِ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ).

الجنة باقيتان في اللفظ، لكن المحتوى تغير. كانتا ثمرًا وظلالًا وطيبًا، فصارتا مرارةً وشجرةً قليل النفع، ولم يبق من السدر إلا شيء قليل.

وهذه صورة موجعة للعقوبة: قد تبقى الأسماء وتفرغ الحقائق. يبقى اسم الوطن ويذهب أمنه، ويبقى شكل المؤسسة وتفنى رسالتها، ويبقى جسد الإنسان وتذبل روحه، ويبقى المال ويزول منه الشعور بالكفاية.

ليس الفقد دائماً أن تُسلب الأشياء كلها، بل قد يكون أشد الفقد أن تبقى الأشياء بين يديك بعد أن تُنزع منها البركة.

المحطة الخامسة عشرة

هل يُجَازَى إلا الكفور؟

(ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكُفُورُ).

ذلك التبديل لم يكن عبثاً كونياً، ولا مصادفة تاريخية عمياء:

(ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا).

فأفعال البشر ليست معزولة عن مصائرهم. ثمة سنن أخلاقية تحكم التاريخ كما تحكمه السنن المادية. الظلم له أثر، والجحود له أثر، وتبديد الأمانة له أثر، ولو تأخرت النتائج حتى ظن الناس أن الأسباب انفصلت عن عواقبها.

لكن قوله: (وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكُفُورُ) لا يعني أن كل نقص في النعمة عقوبة على ذنب بعينه؛ فالأنبياء والصالحون يُبتلون، وقد يكون المنع رفعة ورحمة. وإنما السياق يتحدث عن جزاء استتصالي جاء لأمة رسخ فيها الجحود وصار الإعراض سمتها.

وهنا يجب أن يتأدب المتدبر: نعتبر بالسنن، لكننا لا نتألى على الله، ولا نحكم على كل مبتلى بأنه معاقب. قد يوجع الله عبداً ليقربه، وقد يوسع على آخر استدراجاً له. ليست ظواهر الأقدار وحدها كافية لكشف المقامات عند الله.

أما «الكفور» فهو الذي تجاوز العثرة العابرة إلى جحود متكرر راسخ. أغلق نوافذ الاعتراف كلها، وتعامل مع النعمة كأنها حق ذاتي لا فضل فيه لله، ثم استخدمها في منازعة أمره. إن الله لا يسلب عباده النعم لأنه يستكثرها عليهم؛ خزائنه لا تنفد. لكنه يريد للنعمة أن تبقى جسراً إليه، فإذا أصر الإنسان أن يحولها إلى جدار يحجبه عن ربه، فقد جعل في قلب النعمة بذرة زوالها.

وهكذا تضع السورة آل داود وسبأ أمامنا:

قال الله لآل داود: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)، فكانت النعمة في أيديهم محراباً وصنعةً وعدلاً.

وقال لأهل سبأ: (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ)، فأعرضوا، فانقلبت الجنتان.

ليست المسافة بين النموذجين في مقدار العطاء، بل في استجابة القلب.

فالنعمة لا تبقى الحضارة وحدها.

الذي يبقيا هو الشكر الذي يحرسها من الداخل.

المحطة السادسة عشرة

الطريق الآمن حين ضاق بصاحبه
(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ
وَأَيَّامًا آمِنِينَ).

لم تكن نعمة سبأ محصورةً في الجنتين. فالنعمة إذا نزلت من الكريم جاءت واسعة الحواشي، يمتد خيرها إلى تفاصيل الحياة التي قد لا ينتبه إليها الإنسان. هيّا الله لهم طريقاً آمناً، وجعل القرى على امتداده ظاهرةً متقاربة، فلا يضربون في مهامه مقفرة، ولا يخافون انقطاع الزاد، ولا يبيتون في وحشة المجهول. وكانت المسافات مقدرة، والمنازل معلومة، والسفر ممكناً في الليل والنهار.
(وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ).

حتى المسافة نعمة.

وحتى الطريق نعمة.

وحتى أن تجد في نهاية يومك مكاناً تأوي إليه نعمة.
إن الإنسان كثيراً ما يشكر على الوصول، وينسى أن الطريق نفسه كان فضلاً؛ يشكر على الرزق، وينسى الأمن الذي مكّنه من طلبه؛ يشكر على الثمرة، وينسى الطرق والماء والأيدي والسنن التي ساقتها إليه.
وقد لا يشعر المرء بنعمة الطريق إلا حين يصير الوصول مخاطرة، ولا بنعمة الأمن إلا حين تتحول المسافة القصيرة إلى رحلة خوف.

(سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ).

الأمن هنا ليس رقماً في سجل الدولة، بل تجربة إنسانية كاملة: أن يمضي الأب ولا يخاف على أبنائه، وأن يحمل المسافر زاده لا سلاحه، وأن ينام في الطريق دون أن يترقب يداً تمتد إليه، وأن يتصل العمران بالعمران فلا تفصل بينهما وحشة.
إن الأمن من أعظم النعم؛ لأنه الوعاء الذي تُحفظ فيه سائر النعم. فما قيمة الثروة إذا بات صاحبها خائفاً؟ وما قيمة البيت إذا لم يكن مأمناً؟ وما قيمة الطريق إذا صار مفترقاً لا بتلاع العابرين؟

لقد أعطاهم الله رزقاً في الأرض وأمناً في الطريق، لتكون حياتهم كلها شهادةً على الرحمة.
لكن القلب إذا مرض لا يضيق بما فُقد وحده، بل قد يضيق أيضاً بما توفر له.

المحطة السابعة عشرة

دعاء البطر حين طلبوا مشقة الطريق
(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَفَأَهُمْ كُلَّ مُزَقٍّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

ما أعجب هذا الدعاء!

كان الطريق قريب المنازل، آمن المراحل، ميسور السفر، فقالوا: (رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا). لقد سمعوا سهولة النعمة لأنها صارت مألوفاً. وهذه من أخطر أمراض الرخاء: أن يعتاد الإنسان فضل الله حتى لا يعود يراه فضلاً، ثم يتخيل أن ما بين يديه قليل، لجرد أنه لم يعد جديداً.

كانت القرى متقاربة، فطلبوا البعد.

وكانت الأسفار آمنة، فتأقت نفوسهم إلى التمايز والتفاخر، أو ضاقت بالنظام الذي جعل الرحلة ميسورة للجميع. فليس كل إنسان يكره المشقة؛ بعض الناس يكره أن تكون النعمة عامةً يتساوى فيها معه الضعفاء.

إن الترف حين ينفصل عن الرحمة لا يكتفي بالنعمة، بل يريد امتيازاً يُحرم منه الآخرون. لا تشبعه جودة الطريق حتى يكون طريقاً لا يقدر عليه إلا الأغنياء، ولا تسره وفرة الخير حتى يصير علامةً تفصله عن سائر الناس.

(وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ).

لم يظلموا الله؛ فالله غني عن العالمين. وإنما كانت كل معصية ضربةً موجهةً إلى البنيان الذي يعيشون داخله. حين يخرج الإنسان عن أمر ربه يظن أنه انتزع لحظة حرية، ولا يرى أنه انتزع جراً من أساس حياته. ثم كانت النتيجة:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ).

كانوا أمةً تتحدث، فصار الناس يتحدثون عنها.
كانوا يروون منجزاتهم، فصار الآخرون يروون انهيارهم.
كانوا حقيقةً تملأ المكان، فصاروا خبراً تجري به الألسنة.

يا لها من مسافة قصيرة بين الغرور والعبرة! حضارة تحسب أنها تكتب نهاية التاريخ، ثم لا يبقى منها إلا قصة تُروى لإثبات أن التاريخ لا يمنح أحداً حصانةً من سنن الله.
(وَمَرَّقَنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ).

طلبوا تباعد الأسفار، فتباعدت بهم الديار.
كرهوا تقارب القرى، فصاروا شذر مذر.

ولعل العقوبة جاءت من جنس الجحود: لم يعرفوا نعمة الاجتماع حتى ذاقوا مرارة التشتت. فالإنسان قد يزهد في أهله وموطنه وجماعته حين يألف وجودهم، ثم لا يعرف قيمة القرب إلا بعد أن تتدف به الرياح بعيداً.
تحولت سبأ من حضارة مستقرة إلى أمثال في التفرق، ومن «بلدة طيبة» إلى جماعات موزعة في الأرض. وحين تتمزق الأمم لا تتمزق الخرائط وحدها؛ تتمزق الذاكرة، والعلاقات، واللغة الداخلية التي كان الناس يعرف بعضهم بها.
ثم نتخم الآية:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

لماذا خص الصَّابِرُ الشَّكُورُ؟

لأن قراءة التاريخ تحتاج إلى خصلتين: صبر يمنع الإنسان من الانهيار أمام المحنة، وشكر يمنعه من الطغيان في النعمة.

بالصبر يعبر أيام السلب، وبالشكر يحفظ أيام العطاء.

وهما جناحا العبودية في تقلب الأحوال؛ فإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، فلا تدفعه النعمة إلى الغفلة، ولا يدفعه البلاء إلى اليأس.

والجمع بينهما بالغ الدلالة؛ فقد يصبر الإنسان حين لا يجد خياراً، لكنه إذا أُعطي نسي. وقد يشكر حين تأتبه النعمة، لكنه إذا مُسَّ بألم اعترض. أما القلب الراسخ فيعرف الله في الحالين.

المحطة الثامنة عشرة

إبليس لم يملكهم، ولكنه عرف أبايهم
(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

بعد أن عرضت السورة فساد النعمة من جهة الإنسان، تكشف اليد الخفية التي تزيّن له طريق الجحود: إبليس.

لقد ظن إبليس أنه يستطيع إغواء كثير من بني آدم، فصدق عليهم ظنه حين اتبعوه. لكنه لم يكن يعلم الغيب، ولم يكن يملك قوة تجبر القلوب. إنما عرف مواطن الضعف في النفس: حب التملك، وطول الأمل، والخوف من الفقر، والتعالي بالنعمة، والملل من الطاعة.

الشیطان لا يصنع في الإنسان شهوةً من عدم، لكنه ينفخ في شهواته حتى تحجب عنه ميزان الحق. ولا يضع فيه حب المال، لكنه يوهمه أن المال هو الأمان. ولا يخلق فيه إرادة القوة، لكنه يفصل القوة عن العدل حتى يصير طغياناً.

(فَاتَّبَعُوهُ).

الكلمة تثبت مسؤوليتهم. لم يقل: فساقهم قسراً، أو فغلهم دون اختيار، بل اتبعوه. هو دعا وزيّن ووعد، وهم أجابوا.

ومن حيل الشيطان أن يدفع الإنسان إلى المعصية، ثم يقنعه بأنه كان ضحيةً لا إرادة له، كي يمنعه من التوبة. فالاعتراف بالمسؤولية ليس جلدًا للذات، بل أول أبواب التحرر. ثم يفتح القرآن نافذة النجاة:

(إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

لم استطع إبليس أن يجعل البشر جميعاً نسخةً واحدة. بقي فريق ثبت على الإيمان. وهذا الاستثناء يبعث الرجاء في أزمنة الغلبة؛ فشيوع الباطل لا يجعله قدراً لا يقاوم، وكثرة السالكين في طريق لا تعفيك من اختيار طريق آخر.

قد يصبح الجحود ثقافة مجتمع، ويبقى قلب واحد شاكراً.

وقد يستسلم الناس لضجيج الفتنة، وتظل فئة تسمع نداء الوحي.

المؤمن ليس محصناً لأنه لا يسمع وسوسة الشيطان، بل لأنه لا يمنحها الطاعة النهائية. قد يتعثر، لكنه يعود؛ وقد يُستدرج خطوة، لكنه ينتبه قبل أن يجعل الزلة طريقاً دائماً.

المحطة التاسعة عشرة

سلطان الامتحان لا سلطان الإجبار

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ).

هذه الآية تقطع عذر كل من حمل الشيطان مسؤولية اختياره:

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ).

لم يمنحه الله مفتاحاً يفتح به القلوب قسراً، ولا قدرةً تسلب الإنسان إرادته. سلطانه وسوسة وتزيين، لا إجبار وإكراه. ولو كان إبليس يجبر الناس على الضلال لبطل التكليف، وسقط معنى الحساب.

إنما جرت الفتنة ليظهر في عالم الشهادة ما يعلمه الله أولاً؛ ليطمئن المؤمن بالآخرة ممن يعيش في شك منها، وتقوم الحجّة على الاختيار الذي صدر من صاحبه.
(مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ).

الإيمان بالآخرة ليس فكرةً مؤجلةً إلى نهاية العمر؛ إنه قوة حاضرة تعيد ترتيب اليوم كله. من أيقن أنه سيقف بين يدي الله يختلف في كسبه وإنفاقه، وفي خلوته وعلايته، وفي خصومته وحبه، وفي استعماله للنعمة.

أما الشك في الآخرة فيترك الإنسان أسير اللحظة؛ يريد لذته الآن، وانتصاره الآن، ومكسبه الآن، ولو احترق غده الأبدى.

الآخرة تمنح الأخلاق عمقها؛ لأنك لا تعود تقيس الفعل بما يحققه عاجلاً فقط، بل بما يبقى منه حين تزول الدنيا.

(وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ).

يحفظ الأعمال من الضياع، ويحفظ الكون من الانفلات، ويحفظ عباده بما شاء من رحمته. لا يفوته من وساوس الشيطان شيء، ولا من مقاومة المؤمن شيء.

حين تغالب رغبةً محرمةً في خلوة لا يراك فيها أحد، فإن هذه المجاهدة محفوظة. وحين ترد كلمة جارحة مع قدرتك عليها، فالصمت محفوظ. وحين تشكر الله في زمن يتفاخر فيه الناس بأنفسهم، فذلك الانكسار الجميل محفوظ.

ما دام ربك على كل شيء حفيظاً، فلا تخش أن يضيع خير لم يره الناس.

المحطة العشرون

الآلهة التي لا تملك وزن ذرة
(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ).

بعد أن عرّت السورة سلطان الشيطان، تعرّي سلطان الآلهة المزعومة كلها.
(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ).

إنه تحدّ يكشف الفراغ الذي تحتجّ خلفه الأسماء. ادعوه عند الشدة، واطلبوا منهم
كشف الضر، وانظروا: ماذا يملكون؟

(لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ).

لم تنف الآية عنهم ملك الجبال أو الكواكب وحدها، بل نفت ملك أصغر ما يتصوره
الإنسان. فمن لم يملك ذرّة، كيف يُجعل شريكاً لمن له السماوات والأرض؟
ثم تستأصل الآية احتمالات الشراكة كلها:
لا يملكون استقلالاً.

وليس لهم في السماوات والأرض نصيب مشترك.
ولم يتخذهم الله أعواناً لحاجة منه.

(وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ).

الله لا يحتاج إلى من يسنده؛ لأن الافتقار صفة المخلوق، أما الخالق فهو الغني الحميد.
وهذا التحرير لا يتعلق بأصنام الحجر وحدها. فقد يصنع الإنسان في قلبه آلهة من مال أو
سلطة أو جماهير أو أسباب، فيظن أنها تمنحه ما لم يكتبه الله، أو تمنع عنه ما أراده الله.
والتوحيد لا يطلب منك ترك الأسباب، بل يطلب ألا تضع قلبك ساجداً لها.

استعمل المال، ولا تعتقد أنه يشتري القدر.

اطلب العلاج، ولا تنس أن الشفاء من الله.

واستعن بالناس فيما يقدرّون عليه، ولا تمنحهم في داخلك سلطاناً لا يملكونه.

إن الأسباب أبواب، وليست آلهة. والذي يفتح الباب ويجري النفع من خلاله هو الله.

المحطة الحادية والعشرون

الشفاعة حين ترتجف القلوب في حضرة الإذن
(وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا
الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

قد يعترف المشرك أن الله هو المالك، ثم يتوهم أن هناك من يستطيع أن يفرض عليه
شفاعة أو يغير حكمه دون إذنه. فجاءت الآية لترد الأمر كله إلى الله:
(إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ).

لا أحد يتقدم بين يديه استقلالاً، ولا أحد يشفع إلا بإذنه ورضاه. فالشفاعة حق، لكنها
ملك لله، يكرم بها من يشاء من الشافعين، ويرحم بها من رضي عنهم من عباده.
ليست الشفاعة ثغرة في سلطان الله، بل مظهر من مظاهر رحمته وسلطانه معاً.
ثم تنقلنا الآية إلى مشهد علوي مهيب:

(حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ).

حتى الملائكة العظام يفزعون عند سماع كلام الله بما شاء سبحانه، ثم إذا كشف الفزع
عن قلوبهم تساءلوا في تعظيم وخشوع: ماذا قال ربكم؟
فيقال:

(الْحَقُّ).

كلمة واحدة تختصر طبيعة كل ما يقوله الله: الحق. أمره حق، وخبره حق، ووعدته حق،
ووعيده حق، وقضاؤه حق. لا يتطرق إلى كلامه جهل، ولا ظلم، ولا عبث.
وإذا كانت الملائكة ترتجف قلوبها إجلالاً لكلام الله، فكيف يمر كلامه على قلب الإنسان
فلا يتحرك؟ وكيف يسمع آياته ثم يقدم عليها رأياً أو هوى أو تقليداً؟
إن من أقسى العقوبات أن يألف المرء الوحي حتى يفقد الدهشة والخشية أمامه؛ يقرأ أخبار
القيامة كما يقرأ خبراً عابراً، ويسمع خطاب الله دون أن يشعر أنه المخاطب.
(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

عليّ فلا يرتفع فوق حكمه حكم.
كبيرٌ فتتضاءل أمام كبريائه الممالك والقوى والمعبودات المدعاة.

وما أجمل أن يتحرر القلب بهذه الكبرياء الإلهية؛ فمن عرف أن الله هو الكبير لم يعد يبالي
في تعظيم المخلوقين، ومن عرف أنه العلي لم يبيع دينه طلباً للعلو عند الناس.

المحطة الثانية والعشرون

السؤال الذي يعيد الرزق إلى رازقه

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

يسألهم القرآن عن حقيقة تعيش في كل لقمة:

(مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟).

من ينزل الماء؟

ومن يشق البذرة؟

ومن يمنح الأرض قابلية الإنبات؟

ومن يحفظ أجسادكم لتستفيد من الطعام؟

ومن يفتح الأبواب التي لم تخطر لكم؟

الرزق ليس مألأ يصل إلى اليد فقط؛ إنه سلسلة طويلة من الأقدار المتعاونة، لا يستطيع الإنسان إنشاء حلقة واحدة منها استقلالاً.

وكان الجواب واضحاً حتى إن الخطاب لم ينتظر منهم أن يجيبوا:

(قُلِ اللَّهُ).

فالله يرزق المؤمن والكافر، والشاكر والجاحد. ورزقه السابق على إيمان الإنسان حجة على رحمته، كما أن استمرار الرزق مع المعصية شاهد على حلمه.

ثم يقول:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

إنها من أرفع طرائق الحوار. والرسول ﷺ على يقين من الحق، لكن الخطاب ينصف المخاطب في صورة العرض، ويدعوه إلى أن يزن الطريقتين. لا صراخ، ولا عجز، ولا سباب؛ بل ثقة هادئة تجعل الحقيقة نفسها تتكلم.

ولاحظ جمال المقابلة: (عَلَىٰ هُدًى)، كأن الهدى أرض ثابتة مرتفعة يحمل صاحبه. و** (فِي ضَلَالٍ)**، كأن الضلال حفرة تحيط بالضال من جهاته.

المهتدي على طريق يراه، والضال داخل تيه يحتويه.

إن قوة الحق لا تحتاج إلى فظاظَة. وكلما رسخ اليقين في القلب استغنى صاحبه عن الصخب؛ لأنه لا يدافع عن هشاشة داخلية، بل يقدم برهاناً ويترك للنور أن يكشف نفسه.

المحطة الثالثة والعشرون

عدل الحوار ونهاية الخصومة

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ).

يبلغ الأدب في محاورتهم مقاماً عجيباً:

(لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا).

نُسب الإِجرام — على سبيل التنزل في المحاوره — إلى جانب المتكلم، بينما قيل في جانبهم: (عَمَّا تَعْمَلُونَ)، فلم يواجههم ابتداءً بوصف الإِجرام. إنه خطاب لا يتنازل عن الحق، لكنه لا يحول الدعوة إلى معركة كرامات شخصية.

هناك فرق بين أن تنتصر للحقيقة، وأن تنتصر لنفسك تحت اسم الحقيقة.

الداعية الذي يريد هداية الناس يختار من الكلام ما يفتح قلوبهم، لا ما يشبع غضبه منهم. لا يزور الحق، لكنه يقدمه في إنصاف وحكمة، عالماً أن إذلال المخالف ليس هو هدايته.

ثم يأتي الموعد الذي تنتهي عنده الخصومات:

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا).

نحن الآن متفرون في المواقف، مختلفون في التصورات، كل فريق يروي القصة من جهته. لكن سيأتي يوم يجمع الله فيه الجميع، فلا يستطيع أحد أن يغادر المجلس، أو يخفي وثيقته، أو يزيّف شأهلاً.

(ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ).

الفتح هنا فصل وقضاء وكشف. سيفتح ما استغلق من النزاع، ويظهر الحق بعد أن كانت تحجبه الدعايات والمصالح.

كم من قضية في الدنيا مات أصحابها قبل أن يظهر وجهها!

وكم من مظلوم رحل والناس يصدقون رواية ظالمه!

وكم من صادق حُوصِر بالكذب حتى بدا في أعين الناس متهماً!

كل ذلك محفوظ ليوم الفتح؛ يوم لا تُشتري المنابر، ولا يُرهب الشهود، ولا تتحكم القوة في صياغة الحقيقة.

(وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ).

يفتح بعلم، فلا يختلط عليه الصادق بالكاذب، ولا الظاهر بالباطن، ولا الخطأ المتعمد بالعجز البشري. يعلم الدوافع التي لم يستطع أصحابها شرحها، والملايسات التي غابت عن الناس، والنيات التي اختبأت تحت الأفعال.

ومن عرف أن الله هو الفتاح هدأ قلبه حين يعجز عن إثبات نفسه لكل أحد. يعمل على بيان الحق بما يستطيع، ثم لا يحترق إذا بقي بعض الناس على سوء ظنهم؛ فثمة فتح أخير لا يغلقه التضليل.

المحطة الرابعة والعشرون

أروني الذين ألحقتموهم بالله
(قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَخْلَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).
(أَرُونِي).

أخرجوا دعوى الشرك من ضباب التقاليد إلى نور البرهان. من هؤلاء الذين ألحقتموهم بالله؟ ماذا خلقوا؟ ماذا يملكون؟ أي رزق أنزلوه؟ وأي ضرر كشفوه استقلالاً؟ الباطل يعيش طويلاً في الكلمات العامة، لكنه يضطرب حين يُطلب منه الدليل. ولذلك يدعو القرآن العقل إلى النظر: لا تكتفوا بما ورثتم، ولا تجعلوا كثرة المرددين برهاناً، ولا تمنحوا الأسماء حقيقة لا تملكها.

ثم تأني (كَلَّا) حاسمة، تردع الوهم وتقطع الطريق عليه.
(بَلْ هُوَ اللَّهُ).

ذلك الاسم الذي تجتمع له معاني الألوهية كلها. هو المعبود بحق، وحده، لا لأن الآخرين يملكون نصيباً أقل، بل لأنهم لا يملكون من الألوهية شيئاً.
(الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

عزيز لا يحتاج إلى شريك يعينه.
حكيم لا يخلق الخلق عبثاً ولا يتركهم هملاً.
وعزته سبحانه ليست قوةً عمياء؛ إنها عزة محكمة بالحكمة. وحكمته ليست فكرةً بلا نفاذ؛ إنها حكمة العزيز الذي لا يعجزه تنفيذ ما أراد.
وكل عزة تستمد من غير الله معرضة للانهار؛ لأن الذي منح المخلوق قوته قادر على نزعها. أما من اعتز بالله فقد تعلق بالعزيز الذي لا يُغلب.

المحطة الخامسة والعشرون

الرسالة التي تجاوزت حدود المكان

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

بعد تثبيت التوحيد، تكشف السورة أفق الرسالة:

(كَافَّةً لِلنَّاسِ).

لم يبعث محمد ﷺ لقبيلة وحدها، ولا لجغرافيا محدودة، ولا لحقبة تنتهي بانتهاء ظروفها، إنه رسول إلى الإنسان من حيث هو إنسان؛ إلى قلبه الذي يخاف ويرجو، وإلى عقله الذي يسأل، وإلى ضميره الذي يتردد بين الشكر والجحود.

علمية الرسالة ليست اتساعاً جغرافياً فحسب، بل اتساع في القدرة على مخاطبة الفطرة الإنسانية عبر الأزمنة. تتغير الأدوات، ويبقى سؤال العبودية. تبدل أشكال الحضارات، ويبقى امتحان القوة والنعمة. تتطور وسائل الإنسان، ويبقى قلبه محتاجاً إلى من يهديه إلى غاية وجوده.

(بَشِيرًا وَنَذِيرًا).

البشارة قبل الإنذار؛ لأن الأصل في الرسالة أن تفتح طريق النجاة، لا أن تتلذذ بوصف الهلاك. جاء النبي ﷺ ليخبر الإنسان أن باب الله مفتوح، وأن الماضي يمكن أن يُغفر، وأن القلب يستطيع أن يولد من جديد.

وهو نذير لأن الرحمة الصادقة لا تترك السائر يتجه إلى الهاوية دون تحذير. الإنذار ليس نقيض الرحمة؛ بل قد يكون أشد صورها صدقاً. من رأى النار ثم لم يحذر منها لم يكن رحيماً.

وفي التوازن بين البشارة والنذارة اعتدال الروح: فلا يطغى الخوف حتى يتحول إلى قنوط، ولا يتمدد الرجاء حتى يصير أماناً من مكر الله.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

لا يعلمون قدر الرسالة، ولا حقيقة الرسول، ولا الخطر الذي ينقذهم منه، ولا السعادة التي يدلمهم عليها. قد يعرفون تفاصيل كثيرة عن العالم، لكنهم يجهلون لماذا هم في العالم. وليس الجهل دائماً نقصاً في المعلومات؛ قد يكون غياباً للمعرفة التي تعيد ترتيب المعلومات كلها.

المحطة السادسة والعشرون

استعجال الموعد لا يؤخره ولا يقدمه

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠١﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ).

كان سؤالهم: (متى هذا الوعد؟) لا يصدر عن شوق إلى المعرفة، بل عن استهزاء يريد أن يجعل تأخر العقوبة دليلاً على عدم وقوعها.

وهذه غفلة تتكرر: يظن الإنسان أن إهمال الله إهمال، وأن مرور الأيام دون عقوبة شهادة براءته. لكنه لا يدرك أن الله لا يعجل لعجلة عباده، ولا يضطرب تديره باستفزاز المكذابين.

(قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ).

لكل شيء موعد؛ لسقوط الأمم، ولانتهاء القوة، ولخروج الإنسان من الدنيا، ولقيام الساعة. قد يجهل الخلق التاريخ، لكن الموعد في علم الله محدد لا تائه.

(لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ).

حين يأتي الأجل لا تستطيع خزائن الأرض شراء دقيقة، ولا الجيوش حراسة صاحبها من الموت، ولا التقنيات تأخير الموعد الذي كتبه الله.

إننا نعيش داخل آجال لا نراها. تؤجل التوبة كأن الزمن ملكاً، ونؤخر رد الحقوق كأن الغد وقع لنا على ضمان بقائه، ونبني خططاً بعيدة دون أن نعرف هل بقي لنا من العمر مقدار إتمام يومنا.

ولا يدعو هذا إلى ترك العمل، بل إلى تطهيره من وهم الخلود. اعمل للمستقبل، لكن لا تؤجل صلاح قلبك إلى المستقبل. خطط لسنواتك، لكن كن مستعداً للقاء ربك اليوم. فالحكمة ليست أن تعرف متى الموعد، بل أن تعيش بحيث لا يفاجئك وأنت بعيد عن الله.

المحطة السابعة والعشرون

حين يتعاهد الكفر مع نفسه ألا يسمع
(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لَوْ لَا أَنَّهُ لَكُم مِّنْ مُّؤْمِنِينَ).

لم يقولوا: تأملنا القرآن فلم يتبين لنا صدقه، بل قالوا:

(لَنْ نُؤْمِنَ).

إنه قرار سابق على النظر، وحكم صدر قبل المحاكمة. أغلقوا الباب، ثم زعموا أن النور لم يدخل.

وثمة فارق بعيد بين من يبحث عن الحق فيتعرّش بشبهة، وبين من يعقد قلبه على الرفض ثم يبحث عن شبهة تبرر موقفه. الأول يحتاج إلى من يأخذ بيده، أما الثاني فقد جعل من الشبهة جداراً يحتمي خلفه من الحقيقة.

(لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ).

إنه رفض للوحي في امتداده كله، لا اعتراض على مسألة جزئية. فقد شعروا أن القرآن لا يطلب منهم تعديل فكرة عابرة فحسب، بل يطلب إعادة بناء علاقتهم بالله، وبالقوة، وبالمال، وبالناس، وبأنفسهم.

كانوا قادرين على احتمال دين يبارك أوضاعهم، لكنهم لم يحتملوا وحيًا يحاكمها. فالقرآن لا يدخل حياة الإنسان زينةً تضاف إلى ما فيها، بل ميزاناً يعيد ترتيبها. يأخذ القوة من مقام الطغيان إلى مقام الأمانة، وينقل المال من دعوى الملك المطلق إلى مسؤولية الاستخلاف، ويحرر المستضعف من عبادة المستكبر، ويضع الجميع على أرض العبودية لله. ثم يفتح السياق فجأة مشهداً من الآخرة:

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ).

كانوا في الدنيا يتحركون ويمكرون ويتخبرون مواقعهم، فإذا هم هناك موقوفون. انتهت حرية الحرب، وسقطت المسافات التي كانوا يختبئون فيها، ووقف الجميع عند ربهم.

إن الوقوف عند الله يساوي بين من صنعت الدنيا بينهم هوةً واسعة. المتبوع والتابع، والرئيس والمرؤوس، وصاحب المنبر والجمهور؛ كلهم في ساحة واحدة، لا يملك أحدهم لنفسه خلاصاً، فضلاً عن أن يخلص غيره.

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ).

يبدأ تبادل الاتهامات. كانت علاقتهم في الدنيا قائمةً على المصالح، فلها انتهت المصالح انكشفت العداوة الكامنة تحتها. إن التحالف على الباطل لا يصنع محبةً حقيقية؛ إنه يؤجل الخصومة إلى ساعة انكشاف الثمن.

(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ).

يتعلق الضعفاء بسادتهم: أنتم الذين زينتم لنا الطريق، وضغظتم علينا، وامتلكتم المناير، وصنعتم الرأي السائد، وجعلتم الباطل يبدو قدراً لا يمكن الخروج عليه. وهذا الاتهام يحمل جانباً من الحقيقة؛ فالمستكبرون يتحملون وزر الإضلال فوق أوزارهم. لكن المستضعف لا يعنى لمجرد أن غيره أضله؛ فقد وهبه الله عقلاً وفطرة، وأرسل إليه النذير، ولم يجعل طاعة المخلوق مبرراً لمخالفة الخالق.

ثمّة استضعاف يعجز الإنسان معه فعلاً، وثمّة استضعاف يتخذ ستاراً لكسله وخوفه ومصلحته. والقرآن يفرق بين المكره الذي لا يملك حيلة، وبين من سلم ضميره لأصحاب القوة كي ينجو من كلفة الاختيار.

المحطة الثامنة والعشرون

المستكبرون يتبرؤون من التابعين
(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ
مُجْرِمِينَ).

يرد المستكبرون ببرود المتبرئ:

(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟).

نحن دعوناكم، لكنكم اخترتم الاستجابة. كان الهدى بين أيديكم، وكانت لكم قلوب وعقول، فلماذا جعلتمونا أرباباً تحدد لكم ما تصدقون وما ترفضون؟
إنهم لا يقولون ذلك حباً في الحق، بل دفاعاً عن أنفسهم. غير أن كلماتهم تكشف حقيقة المسؤولية الفردية: لا يستطيع المرء أن يضع قلبه في يد زعيم، ثم يطالب يوم القيامة أن يحاسب الزعيم عنه.
فالولاء لا يسقط العقل.

والانتماء لا يعفي من السؤال.

والكثرة لا تحول الباطل إلى حق.

والمكانة العلمية أو السياسية أو الاجتماعية لا تمنح صاحبها عصمةً من الخطأ.

كل طاعة بشرية محدودة بطاعة الله، وكل علاقة تفرض على الإنسان أن يطفى بصيرته هي صورة من صور الاستعباد.

(بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ).

يردون الجريمة كلها إلى الأتباع، كأنهم لم يزينوا ولم يمكروا ولم يستغلوا سلطانهم. وهكذا يفعل أهل الاستكبار دائماً: ينتفعون بطاعة الجماهير في الدنيا، ثم يتبرؤون منها حين يأتي الحساب.

في الرخاء يقولون: هؤلاء أتباعنا.

وعند المسؤولية يقولون: هم اختاروا بأنفسهم.

يجمعون مكاسب القيادة، ويرفضون تبعاتها.

لكن عدل الله لا يسمح للمضلل أن يحتجّ خلف اختيار الضحية، ولا للتابع أن يحتجّ
خلف تأثير المضلل. لكلّ نصيبه الدقيق من المسؤولية، لا يظلم ربك أحداً.

المحطة التاسعة والعشرون

مكر الليل والنهار

(وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

لم يكن الإضلال كلمةً قيلت مرةً وانتهت، بل كان:

(مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ).

عملاً متصلًا لا يهدأ، تضليلاً يعاد حتى يصبح مألوفًا، ورسائل تتكرر حتى يظن الناس أنها حقائق، وضغطًا اجتماعيًا يلاحق الإنسان في ليله ونهاره، فلا يكاد يجد مساحةً يسمع فيها صوته الداخلي.

إن الباطل لا يعتمد دائمًا على قوة الحجّة، بل كثيرًا ما يعتمد على كثرة التكرار. تُردّد الفكرة حتى تنتقل من مقام الدعوى إلى مقام المسئلة، ويُسخر من الحق حتى يخجل الضعيف من الانتساب إليه.

وهذا هو مكر الليل والنهار: صناعة بيئة كاملة يبدو فيها الإيمان غريبًا، ويبدو الانحراف طبيعياً، ويُمنح الشرك أسماء براقة تخفي حقيقته.

(إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا).

لم يكن الأمر دائماً بصيغة مباشرة: «اكفروا بالله». فقد يؤمر الإنسان بالكفر حين يُطلب منه أن يمنح حق الله لغيره، أو يقدم أمر البشر على أمره، أو يعتقد أن الرزق والنصر والعزة بيد مخلوق استقلالاً.

الأنداد لا تُصنع من الحجر وحده؛ قد تُصنع من أفكار وأشخاص ومصالح وأهواء. وكل ما زاحم محبة الله وتعظيمه وطاعته في الموضع الذي لا يكون إلا له، فقد أخذ من القلب نصيباً لا يستحقه.

ثم تسكت الخصومة فجأةً حين يرون العذاب:

(وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ).

لم أسروها؟

ربما لأن الهول عقد ألسنتهم، أو لأن المستكبر الذي قضى حياته متعالياً يستثقل أن يُظهر انكساره، أو لأن الندامة بلغت من العمق ما ضاقت العبارة عن حمله. في الدنيا كان كل فريق يجهر بالثقة، فإذا انكشف المصير صار الندم سرّاً مشتركاً في الصدور.

لكنها ندامة جاءت بعد انقضاء زمن العمل. والندم لا ينقذ صاحبه لمجرد شدته؛ إنما تنفع الندامة حين تتحول في الدنيا إلى توبة. أمّا في الآخرة فقد صار الكشف يقيناً اضطرارياً لا امتحان فيه.

(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا).

من رفضوا قيد العبودية لله، انتهوا إلى أغلال العذاب. أرادوا حرية من أمر الله، فصاروا عبيداً للشهوة والمستكبرين والأوهام، ثم ظهرت قيودهم الباطنة أغلالاً ظاهرة يوم القيامة. العبودية لله وحدها هي التي تحرر الإنسان؛ لأنها تفك رقبتة من كل عبودية سواها. ثم يأتي ميزان العدل:

(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ليست الأغلال ظلماً نزل بهم من خارج تاريخهم؛ إنها الصورة الأخيرة للأعمال التي صنعوها. فالجزاء الأخروي يكشف حقيقة ما كان الإنسان يفعل في الدنيا. كانت المعصية تبدو لذة عابرة، فإذا باطنها قيد. وكان الإيمان يبدو تكليفاً شاقاً، فإذا حقيقته حرية ونور.

المحطة الثلاثون

المترفون: حين تخشى النعمة على نفسها من الوحي
(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).
تكشف الآية سُنةً متكررة في تاريخ الرسالات: كثيراً ما كان أول من يتصدى للنذير هم
المترفون.

ليس لأن المال شر في ذاته، فقد كان في الأنبياء والصالحين أغنياء شاكرون، ولكن
الترف حالة تتجاوز امتلاك المال إلى أن يمتلك المال القلب؛ أن يعتاد الإنسان الراحة حتى
يرى كل حقيقة تهدد امتيازاته عدوًّا.

النذير لا يأتي ليحرم الناس من الحياة، بل ليحرر الحياة من الظلم. لكن المترفين يدركون
أن دعوة التوحيد لن تترك البنيان الاجتماعي الفاسد كما هو؛ لأنها تعلن أن البشر عباد
لله، وأن الكرامة لا تُشتري، وأن المال أمانة، وأن للفقير حقًّا، وأن الحاكم محاسب، وأن
القوة لا تصنع الحقيقة.

ولهذا لم يقولوا: سننظر فيما جئتم به. بل قالوا:

(إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).

رفض طبعي قبل أن يكون نقاشاً فكريًّا. لقد شعروا أن الرسالة تهز الأرض التي أقاموا عليها
سلطانهم، فحموها بإنكار الوحي.

إن بعض الأفكار لا يرفضها الإنسان لضعف دليلها، بل لأنها تطالبه بالتخلي عن منفعة
حرام. وقد يكون العقل مقتنعًا، لكن المصلحة تقف بينه وبين الاعتراف.

الوحي مرآة، والمترف يخشى أن يرى فيها أن نخامته الخارجية تخفي فقرًا روحيًّا عميقًا.

المحطة الحادية والثلاثون

وهم الحصانة بالمال والأولاد

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

هذا هو البرهان الذي قدّمه المترفون على سلامة طريقهم:

(نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا).

كأن كثرة العطاء الدنيوي شهادة رضا نهائية من الله، وكأن من وسّع عليه لا يمكن أن يكون ضالًّا، ومن ضيق عليه لا بد أن يكون حيناً عند ربه.

وهذا من أقدم الأوهام وأشدّها بقاءً: قياس القيمة عند الله بمقدار ما في اليد.

يرى الغني اتساع رزقه فيظنه تركيةً مطلقة لشخصه وأفكاره، ويرى الفقير ضيق حاله

فيحسبه علامة هوانه على الله. فيفسد الأول بالغرور، ويهزم الثاني باليأس.

لكن الدنيا ليست دار الجزاء الأخير. قد يعطي الله المال لمن يحب ومن لا يحب، وبمنعه

عمن يحب ومن لا يحب، لحكمٍ وابتلاءات لا يحيط بها الإنسان. وليست النعمة شهادة

براءة؛ إنها ورقة امتحان.

بل قد يكون كثرة المال أثقل الأسئلة يوم القيامة: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقته؟ ماذا صنع

به في أرواح الناس؟ كم حقاً حبسه؟ وكم باطلاً مولّه؟

وكذلك الأولاد: ليسوا أرقاماً يفاخر بها الإنسان، بل أرواحاً ائتمته الله عليها. قد يكونون

قرة عين إذا صلحوا، وقد يتحولون إلى فتنة إذا صار حبهم مبرراً للحرام أو انشغل بهم عن

المنعم.

ثم بلغ الوهم غايته:

(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

انتقلوا من ملاحظة النعمة إلى ادعاء الحصانة. قالوا في أنفسهم: لو كان الله ساخطاً علينا لما

أعطانا كل هذا. وهكذا حوّلوا الإهمال إلى أمان، والابتلاء إلى تركية، والفضل إلى حجة

على الاستغناء عن الشكر.

لكن وفرة النعمة لا تعني أن الحساب ألغي؛ قد تعني أن مواد الحساب كثرت.

المحطة الثانية والثلاثون

الرزق ليس مقياس الكرامة

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

يأتي الرد بإعادة الرزق إلى المشيئة الإلهية:

(يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ).

«يقدر» هنا بمعنى يضيق ويقدر بمقدار. فالبسطة والقبض كلاهما في يد الله، وكلاهما امتحان.

قد يبسط ليختبر الشكر، وقد يضيق ليختبر الصبر. وقد يبسط استدراجاً، وقد يضيق حماية. وقد يمنح المال لمن تكون حجته عليه، ويحجبه عمن يكون حجابهم رحمةً به. نحن نرى مقدار الرزق، ولا نرى الحكمة كلها.

نرى اليد الممتلئة، ولا نرى القلب الذي قد يكون خاوياً.

ونرى البيت الضيق، ولا نرى السكينة التي وسعته من الداخل.

ولذلك كان الحكم على الناس من خلال أرزاقهم نوعاً من الجهل بسنن الله.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

لا يعلمون أن الرزق أوسع من المال. فمن الناس من رُزق فهماً ولم يرزق شهرة، ومن رُزق طمأنينة ولم يرزق سعة، ومن رُزق قلباً حاضراً مع الله ولو خلت يده من كثير من الأشياء.

ورب إنسان اتسعت خزائنه وضاقت صدره، وكلما ازداد مالاً ازداد فقراً؛ لأنه صار يحتاج إلى المزيد كي يشعر بما كان ينبغي أن يجده في القرب من الله.

وليس معنى الآية احتقار المال أو ترك السعي؛ فالمال نعمة عظيمة إذا جاء من حلال واستعمل في الحق. إنما المعنى أن المال وسيلة لا ميزان، وأمانة لا شهادة تفوق.

المحطة الثالثة والثلاثون

القرب الذي لا تشتريه الثروات
(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ
لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ).

ليس المال مذمومًا، ولا الأولاد مذمومين؛ وإنما الوهم المذموم أن يظن الإنسان أن مجرد امتلاكهما يرفعه عند الله.

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ).

إن الله لا ينظر إلى ما ازدحمت به يدك، بل إلى ما عمر به قلبك وما صدقه عملك. قد يدخل الغني على الله بقلب فقير إليه فيرتفع، وقد يدخل الفقير بقلب معترض متكبر فيسقط. المقياس ليس صورة الحال، بل حقيقة العبودية.

(إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا).

إذا دخل الإيمان على المال، تحول المال إلى صدقة وستر وإعمار للخير.
وإذا دخل الإيمان على الأبوة، تحولت الذرية إلى أمانة تُربى على معرفة الله.
وحينئذ لا يكون القرب بسبب ذات المال والولد، بل بسبب العمل الصالح الذي أدَّى بهما.

فالأشياء لا تقربنا إلى الله إلا حين تمر عبر الطاعة.

القلم لا يقربك لمجرد جماله، بل حين يكتب حقًا.

والعلم لا يقربك لمجرد سعته، بل حين يورث خشيةً وينفع الخلق.

والمكانة لا تقربك لمجرد ارتفاعها، بل حين تجعلها منبرًا للعدل.

(فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا).

الحسنة لا تعود إلى صاحبها بمقدارها المحدود، بل يضاعفها الكريم. أنت تقدم عملاً صغيراً محاصراً بضغفك، فيلتقيه الله بفضله ويُنميه حتى يفوق ما تصورت.

ليست المضاعفة لأن العمل في ذاته عظيم، بل لأن الذي يجزي عليه كريم.

(وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ).

كان المترفون يطلبون الأمن في الأموال والأولاد، فإذا الأمن الحقيقي في غرفات الجنة. هناك لا يخافون زوال النعمة، ولا مفاجأة الموت، ولا حسد الحاسدين، ولا انقلاب الأحوال.

إن نعيم الدنيا مهما اتسع يظل قلقاً؛ لأن صاحبه يعرف في أعماقه أنه قابل للفقد. أما نعيم الجنة فقد نُزعت منه إمكانات الزوال، ولذلك اكتمل بلفظة: (آمِنُونَ). فالنعمة لا تصفو حتى تأمن عليها من الفناء.

المحطة الرابعة والثلاثون

المعاجزون الذين ظنوا أنهم يسبقون الحق

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ).

ليست القضية أن بعضهم لم يهتد فحسب، بل إنهم سعوا في مقاومة الآيات وإبطال أثرها، وبذلوا طاقتهم ليصدوا الناس عنها:

(يَسْعَوْنَ).

السعي حركة مقصودة متتابعة. إنها مشروعات منظمة لصناعة الشك، وتزيين الباطل، ومحاصرة صوت الوحي. ظنوا أنهم يستطيعون أن يعجزوا الله، أو يجعلوا دعوته عاجزة عن بلوغ القلوب.

وقد يملك الباطل وسائل واسعة، ويضيق على الحق في مرحلة من المراحل، حتى يبدو لأصحاب النظر القصير أن المعركة انتهت. لكن كلمة الله ليست مرتبطة بما يظهر الآن من موازين القوة.

كم من سلطان حارب آية، ثم مات وبقيت الآية تُتلى!

وكم من قلم سخر من الوحي، ثم صار حبره تراباً وبقي الوحي ينشئ القلوب!
وكم من حضارة توهمت أنها تجاوزت حاجة الإنسان إلى الله، ثم اكتشفت بعد كل تقدم أنها زادت قدرته ولم تجب عن غايته!

(أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ).

في الدنيا سعوا بأنفسهم إلى محاربة الحق، وفي الآخرة يُحضرون إلى العذاب فلا يملكون الفرار. من ظن أنه قادر على محاصرة آيات الله وجد نفسه محاصراً بما صنع.

المحطة الخامسة والثلاثون

ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه
(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

يتكرر الحديث عن بسط الرزق وتقديره، لكن السياق يضيف هذه المرة باباً عظيماً من أبواب الشكر:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ).

الإنسان يرى الإنفاق نقصاً؛ لأن عينه تقع على ما خرج من يده. أما الإيمان فيرى ما انتقل إلى خزائن الله، وما استدعاه البذل من البركة والثواب والخلف. ليس معنى الخلف أن يعود المال دائماً بالصورة نفسها أو في الوقت الذي يختاره المنفق. قد يخلفه الله مالاً، أو يدفع به بلاءً، أو يفتح به باب رزق، أو يزرع به محبة، أو يدخره لصاحبه يوم يكون أحوج ما يكون إلى حسنة واحدة. نحن نحدد الرزق غالباً بما يمكن عده، والله يرزق بما لا يدخل تحت الحساب. قد تنفق درهماً فيخلفه سكينته. وقد تمسح دمعةً فيخلفها الله رحمةً تنزل عليك في ساعة وحدتك. وقد تمنح علماً فيبقى أثره بعد موتك. وقد تتنازل عن حق شخصي ابتغاء وجه الله، فيعوضك عزه في القلب لا تُشترى. (مِنْ شَيْءٍ).

تفتح العبارة الباب لكل بذل مشروع؛ قليلاً كان أو كثيراً. فلا يحتقرن الإنسان ما يقدمه. قد تكون اللقمة صغيرة في عينه، لكنها عظيمة عند جائع. وقد تكون الكلمة يسيرة على لسانه، لكنها تعيد إلى قلب مكسور قدرته على الحياة. لكن الوعد لا يعني التبذير ولا الإنفاق في الحرام؛ إنما هو إنفاق الطاعة والحكمة. فالله لا يُعبد بالإنفاق، والكرم لا يكون بإضاعة حقوق من تلزمك رعايتهم. (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

يسمي القرآن بعض المخلوقين رازقين باعتبار أنهم أسباب تصل الأرزاق على أيديهم، لكن الله خير الرازقين؛ لأنه الخالق للرزق، والخالق للسبب، والخالق لليد التي تأخذ والقدرة التي تنتفع.

رزق البشر محدود، قد يصحبه منٍّ وأذى، وقد ينقطع بعجزهم أو تغير قلوبهم. أما رزق الله فيأتيك من أبواب لم تحسبها، ويصل إليك وأنت في الرحم، ويبقى فضله عليك حتى بعد أن تعصيه.

من عرف أن الله خير الرازقين لم يذل نفسه لمخلوق طلباً لما كتبه الخالق، ولم يمنعه خوف الفقر من البذل، ولم ينسب الفضل إلى الواسطة وينسى من أرسلها.

المحطة السادسة والثلاثون

الملائكة يتبرؤون من عبادة عابديهم
(وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ
وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ).

يجمعهم الله جميعاً: العابدين، ومن زعموا أنهم يعبدونهم، ومن زين لهم العبادة. لا يبقى
شيء خلف الأسطورة، فكل الأطراف حاضرة.
يسأل الله الملائكة وهو أعلم:

(أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟).

ليس سؤال استعلام، بل سؤال إظهار للحقيقة وإقامة للحجة؛ حتى يسمع العابدون من
الملائكة أنفسهم براءتهم من ذلك الشرك.
فيأتي جوابهم بأول كلمة ينبغي أن تقال حين يُنسب إلى الله ما لا يليق:
(سُبْحَانَكَ).

تنزيهاً لك أن يكون لك شريك، وتنزيهاً لك أن نرضى بعبادة أحد لنا من دونك.
(أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ).

لم يغتر الملائكة بنسبة العبادة إليهم، ولم يروا كثرة العابدين شرفاً. عرفوا أن الولاية لله، وأن
أشرف مقاماتهم أن يكونوا عبيداً له.

أما الإنسان فقد يتوق إلى أن يعظمه الناس حتى يفرح بما يرفعه فوق مقامه، وقد يسكت
عن الغلو فيه لأنه يغذي خفاءً رغبة نفسه في التعظيم. وكل عبد صادق يخشى أن يأخذ
من قلوب الخلق موضعاً لا يحق إلا لله.

(بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ).

أي إن الشياطين زينوا لهم الشرك، فأطاعوهم واتبعوا وسأوسهم، وإن ظنوا أنهم يتوجهون
إلى الملائكة. فالعبرة في العبادة ليست بالاسم الذي يضعه الإنسان على فعله فقط، بل
بالحقيقة التي ينتهي إليها.

قد يسمى الضلال تحرراً، ويسمى الهوى عقلانية، ويسمى الخضوع للباطل واقعية؛ لكن
تغيير الأسماء لا يغير حقائق الأعمال عند الله.

(أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ).

لقد منحوا الشياطين تصديقاً وطاعةً واتباعاً، حتى صار للباطل سلطان على تصوراتهم. وما بدأ كوسوسة عابرة انتهى إلى عقيدة تُبنى عليها الحياة.

المحطة السابعة والثلاثون

سقوط شبكة المنافع الموهومة

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ).

في الدنيا قامت علاقات الشرك على وهم المنفعة والضرر: يعبدون ما يظنون أنه يقربهم أو ينجيهم، ويتنازلون عن الحق خوفاً من ذي سلطة، ويعقدون قلوبهم بمن يظنون أن مصائرهم في يده.

فإذا جاء اليوم الآخر انهارت الشبكة كلها:

(لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا).

لا المعبود يستطيع نجدة عابده، ولا التابع يستطيع تخفيف عذاب متبوعه، ولا الجماعة التي منحت الفرد شعوراً زائفاً بالأمان تستطيع أن تحمل عنه سيئة. هناك يعود الإنسان فرداً كما خلق أول مرة.

إن كل علاقة لا تقوم على الله تنكشف هشاشتها عند الشدة القصوى. أما الحب في الله، والنصح لله، والتعاون على البر، فهذه علاقات لا تنقطع بالموت؛ لأنها لم تُبنِ على المصالح العابرة.

ثم يقال للظالمين:

(ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ).

جاء التعبير بالدوق؛ لأنهم سينقلون من إنكار الخبر إلى مباشرة الحقيقة. كانوا يجادلون في النار بوصفها فكرة، فإذا بها واقع يحيط بهم. والتكذيب بالنار لا يطفئها، كما أن إغماض العين عن الشمس لا يحوها. الحقائق لا تستمد وجودها من اعترافنا بها. قد يرفضها الإنسان زمناً، لكنه لا يستطيع أن يرفض نتائجها حين تأتي.

وهنا يبلغ مشهد الشرك نهايته: آلهة لا تملك ذرةً، وملائكة تئبراً، وشياطين أضلت، ومتبوعون يخاضعون أتباعهم، وكل أسباب الوهم تساقط، فلا يبقى إلا الله، والعبد، وعمله.

المحطة الثامنة والثلاثون

حين يُسمَّى الوحي سحراً كيلاً يُسمع
(وَإِذَا نُنَاجِيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ
وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ).

كانت الآيات بينات؛ واضحة في مصدرها، قوية في حجتها، نافذة إلى الفطرة، لكن وضوح
الدليل لا ينفع قلباً قرر ألا يرى.

لم يستطيعوا مواجهة القرآن في ذاته، فحولوا المعركة من مناقشة الرسالة إلى التشكيك في نية
الرسول ﷺ:

(مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ).

لم يقولوا: انظروا في قوله أحقّ هو أم باطل، بل قالوا: إنه يريد أن يسلبكم تراثكم. حرّكوا
الخوف الكامن في النفوس من مغادرة المألوف؛ لأن كثيراً من الناس لا يدافعون عن
الفكرة لقوة دليلها، بل لطول صحبتهم لها.

لقد ورثوا العبادة عن الآباء، فتحولت قَدَمُ الباطل في أعينهم إلى برهان على صحته. وكان
الخطأ إذا عمر أجيالاً صار حقاً، وكان كثرة الأقدام على الطريق تمنع أن يكون الطريق
ضلالاً.

لكن القرآن يحرق الإنسان من استبداد الماضي كما يحرقه من استبداد الحاضر. يحفظ للآباء
فضلهم، لكنه لا يمنحهم عصمةً من الخطأ. فالحقيقة لا تُعرف بأعمار الأفكار، وإنما
تُعرف بدليلها وموافقتها لوجي الله.

ولم يكن الرسول ﷺ يصدّهم عن آبائهم ليشدهم إلى نفسه، بل كان يحررهم من عبادة
الخلق جميعاً ليردهم إلى عبادة الخالق. غير أن المستفيد من التقليد يصور التحرير قطيعةً،
ويصور القيد هويةً لا يجوز المساس بها.

ثم ارتقوا في الاتهام:

(مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى).

اتهموا الوحي بأنه كذب مصنوع، دون أن يقدموا تفسيراً لقدرة بشر عاش بينهم أمياً
صادقاً أميناً على أن يأتي بهذا القرآن الذي قلب موازين الروح والفكر والتاريخ.
ثم قالوا:

(إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ).

سمّوه سحراً لأنهم شعروا بسلطانه على القلوب، لكنهم لم يريدوا الاعتراف بأن هذا السلطان سلطان الحق. كانوا يرون الرجل يسمع آيات قليلة فتتغير حياته، ويرون القرآن ينفذ إلى المواضع التي تعجز خطبهم وأشعارهم عن بلوغها، فلم يجدوا إلا «السحر» اسماً يخفون به عجزهم.

وهكذا يفعل الباطل حين تهزّ الحقيقة: يطلق عليها وصفاً منقراً، كي يمنع الناس من الاقتراب منها. فالاسم قد يُستخدم ستاراً يحجب عن العين حقيقة المسمّى. لكن القرآن ليس سحراً يسلب الإنسان إرادته؛ بل نور يعيد إليه إرادته بعد أن سلبتها الأصنام والعادات والأهواء.

المحطة التاسعة والثلاثون

رفض بلا كتاب ولا برهان

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ).

من أين جاءهم اليقين الذي يتكلمون به؟ أي كتاب سماوي يدرسون فيه أن الشرك حق وأن محمداً ﷺ كاذب؟ وأي رسول سبق إليهم فأقر ما هم عليه؟ لا كتاب، ولا نذير، ولا حجة.

إنما هو ميراث اجتماعي تحول بفعل الزمن إلى سلطة تحاكي سلطة الوحي. وهذه الآية تفضح الجراءة على الحقيقة دون علم. فقد يرفع الإنسان صوته ليخفي خواء دليله، ويكرر موقفه بثقة حتى يظن السامع أن وراء الثقة علماً، وما وراءها إلا عادة وهوى.

(مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا).

الدراسة ليست مجرد امتلاك كتاب، بل مداومة النظر والفهم والتحصيل. وهم لم يكونوا أصحاب وحي درسوه فوجدوا فيه ما يثبت دعاواهم. ومع ذلك وقفوا أمام القرآن موقف من يملك معرفة أعلى منه.

وهنا درس للعقل المؤمن: لا تجعل قوة العبارة بديلاً عن قوة البرهان، ولا تغتر بالثقة التي يتحدث بها صاحب الدعوى. اسأل دائماً: ما مصدر هذا القول؟ وما دليله؟ وهل هو علم، أم ظن ليس ثوب العلم؟

وإذا كان الله قد عاب عليهم القول بلا كتاب ولا نذير، فجدير بمن ينتسب إلى الوحي ألا ينسب إلى دين الله ما لم يقله الله، وألا يجعل انطباعه الشخصي حكماً شرعياً، ولا هواه تفسيراً للنص.

فالافتراء على الوحي قد يقع من خصومه، وقد يقع ممن يزعم نصرته إذا تكلم باسم الله بغير علم.

المحطة الأربعون

قوة قريش التي لم تبلغ معشار قوة السابقين
(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِيعَ شَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ).

تفتح السورة نافذةً على التاريخ، لتعيد حجم المكذبين إلى حقيقته. فهؤلاء الذين ملأهم الشعور بالقوة لم يبلغوا معشار ما أُعطي بعض من سبقهم من أسباب التمكين والعمران. كانت أمم قبلهم أشد قوة، وأوسع مالاً، وأرسخ آثاراً، وأقدر على تشكيل الأرض. ومع ذلك لم تحمهم قوتهم حين كذبوا الرسل.
(وَمَا بَلَغُوا مِيعَ شَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ).

إن القوة التي يختبر بها الإنسان الآخرين تصغر حين توضع في ميزان التاريخ، ثم تتلاشى حين توضع أمام قدرة الله.

كل طاغية يرى نفسه في مركز العالم؛ لأن زمنه القريب يحجب عنه آلاف الطغاة الذين كانوا قبله، وقالوا ما قال، وامتلكوا أكثر مما امتلك، ثم صاروا طبقةً صامتةً تحت التراب. وهذه من وظائف التاريخ في القرآن: أن يكسر سحر اللحظة الحاضرة. فالمشهد القائم مهما بدا مطلقاً ليس إلا فصلاً عابراً. والقوة التي تملأ الشاشات والطرق لا تملك أن تضيف إلى عمرها يوماً إذا نزل أمر الله.

(فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ).

كيف كان إنكاري عليهم وتغيير لحالهم وعقابي إياهم؟
إنه سؤال يحمل في طياته الجواب؛ فقد كانت آثارهم أمام العيون. قصور خلت من أصحابها، وأمم بقيت أسماؤها وغابت أصواتها، وقوى كانت ترعب الأرض ثم لم تستطع حماية نفسها.

فليست العبرة أن تمتلك الأمة أدوات البقاء فحسب، بل أن تبقى مستحقةً للحفظ في ميزان السنن. قد تُحسن بناء الجدران وتُفسد الإنسان الذي يسكن وراءها، وحين ينهار الإنسان لا تنقذه هندسة الحجر.

المحطة الحادية والأربعون

موعظة واحدة تنهض بالعقل من ضجيج الجماعة
(قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

بعد كل الاتهامات، لا يطلب منهم القرآن طقوساً معقدة، بل موعظة واحدة:
(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ).

لا تقوموا للعصبية، ولا للدفاع عن الموروث لمجرد أنه موروث، ولا حفاظاً على المكانة، ولا خوفاً من كلام الناس. قوموا لله وحده؛ اطلبوا الحقيقة متجردين من المصالح التي تشوش عليها.

إن العقل لا يرى بوضوح حتى تستقيم نية النظر. وقد يكون ذكاء الإنسان نفسه أداةً لتضليله إذا استخدمه للدفاع عن نتيجة قررها الهوى سلفاً.
(مَثْنَى وَفُرَادَى).

اخرجوا من ضجيج الجموع؛ اثنين اثنين أو واحداً واحداً. فالإنسان داخل الحشد قد يستعير شجاعته من سخرية الجماعة، ويردد ما يُقال دون أن يسمع نفسه. أما حين يخلو إلى ضميره، أو يجلس إلى آخر في حوار هادئ، تسقط كثير من الأقنعة. لذلك يدعوهم الوحي إلى فضاء لا تصرخ فيه القبيلة، ولا يراقب فيه المتكبرون ملاحظهم، ولا يخشون أن يُتهموا بخالفة السائد.

كم من إنسان عرف الحق في وحدته، ثم أنكره حين عاد إلى جماعته!
وكم من قلب رقّ للآية، ثم قسا خوفاً من نظرات المحيطين!
إن الاستقلال الفكري يبدأ من القدرة على الوقوف أمام الله منفرداً.
(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا).

لم يقل: ثم تندفعوا، بل: تفكروا. فالإيمان ليس عدو العقل، بل هو دعوة إلى تحرير العقل من أسر الجماعة والهوى.

تأملوا سيرة صاحبكم ﷺ. أنتم تعرفون مولده ونشأته وصدقه وأمانته واتزان عقله. عاش بينكم أربعين عاماً، فما جرّتم عليه كذباً ولا اضطراباً. فكيف صار عندكم مجنوناً حين جاءكم بما يخالف شهواتكم؟

(مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ).

سمّاه «صاحبكم» تذكيراً بقربه منهم ومعرفتهم به. ليس غريباً ظهر فجأةً، بل صاحب عاش بينهم، وهم أعرف الناس بسلامة عقله ورفعة خلقه.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

إنه واقف بينكم وبين العذاب يحذركم. والذي ينذر قومه من الخطر لا يريد هلاكهم، بل نجاتهم. لقد تحمل ﷺ سخرتهم وأذاهم لا لينتصر لنفسه، بل كيلا يصلوا إلى المصير الذي يراه بوحى الله ولا يرونه.

والرحمة قد تأتي في صورة إنذار حازم؛ لأن المربي الذي يخفي الخطر عن محبوبه ليس رحيماً، وإن تلطّف بعبارة.

المحطة الثانية والأربعون

الدعوة التي لم تكن تجارة

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

من دلائل صدق الرسالة أن صاحبها لم يجعلها باباً للمكسب الشخصي:
(مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ).

لم يطلب مالاً مقابل الهداية، ولا جعل الدخول في الدين ضريبةً تؤدى له، ولا بنى دعوته على استنزاف من يتبعونه. كان يعطيهم أثمن ما يحمل، ثم يحتمل أذاهم، ويرجو أجره من الله.

(فَهُوَ لَكُمْ).

إن كان قد وقع في أوهامكم أني أريد شيئاً من دنياكم، فاحتفظوا به كله. إن الرسالة أغنى من أن تُشتري، وصاحبها أعلى من أن يساوم على الحق.
إن الداعية يضعف أثره حين يشعر الناس أنه يتخذ كلمات الله سلباً إلى حظوظ نفسه. وقد يصفو كلامه في ذاته، لكن رائحة الطمع تجبجه عن القلوب. أما من تحرر من أجور الناس، امتلك حرية قول الحق لهم.

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

هذه الكلمة تمنح صاحب الرسالة صبراً عجيماً. فقد يبذل ولا يرى نتيجة، ويكتب ولا يجد من يفهم، وينصح فيسأ الظن به، ويزرع ولا يعيش حتى يرى الثمر. فإذا كان أجره على الناس تحطم، وإذا كان أجره على الله مضى مطمئناً، لأن الله لا يضيع عملاً خالصاً. ليس عليك أن تُجبر القلوب على تقدير ما صنعت. يكفي أن يراه الله.

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

يشهد صدق الرسول ﷺ، ويشهد عناد المكذبين، ويشهد النيات التي تختفي خلف الكلام. والشهادة الإلهية تغني الصادق عن مطاردة كل تهمة.
فن كان الله شهيداً، لم تضره محكمة الضجيج، وإن آلمته.

المحطة الثالثة والأربعون

الحق الذي يُلقي فلا تتقف أمامه أوهام الباطل
(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ).

اختارت الآية فعلاً قوياً:

(يَقْذِفُ بِالْحَقِّ).

فالحق ليس خاطراً ضعيفاً يتسلل معتدراً، بل قوة يقذف الله بها في مواجهة الباطل، فتبلغ موضعه وتكشف هشاشته.

قد يبدو الباطل ضخماً؛ له منابر وجيوش وأموال، لكن حجمه الظاهر لا يعني صلابته الداخلية. إنه يشبه بناءً من الظلام يبدو ممتداً حتى يُقذف إليه شعاع، فإذا المساحات التي أخافت العيون لا تملك مقاومة النور.

والله هو الذي يقذف بالحق؛ ولذلك لا يتوقف مصير الحق على قوة حامله البشرية وحدها. نعم، يُطلب من المؤمن أن يبذل ويبين ويصبر، لكن فاعلية الكلمة في القلوب بيد الله. قد ينطق إنسان بعبارة يظنها عابرة، فيقذف الله بها نوراً في قلب آخر، فتغير مسار حياته. وقد تُكتب صفحة في عزلة، ثم يجعل الله لها سفراً طويلاً بعد غياب كاتبها.

(عَلَّامُ الْغُيُوبِ).

يعلم أين يضع رسالته، ومتى يفتح للحق أبوابه، وما تخفيه الصدور من استعداد أو عناد. وقد يتأخر ظهور النصر لأن في الغيب حكمة لا نراها، لكن التأخر لا يعني أن الحق أهمل. ومن علم الغيب يعلم الله الباطل قبل أن يظهر، ويعلم المكائد قبل أن تُحك، ويعلم الكلمة التي ستبطلها حين يحين موعدها.

المحطة الرابعة والأربعون

جاء الحق، وانطفأت قدرة الباطل على البدء والإعادة
(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ).
(جَاءَ الْحَقُّ).

جملة قصيرة تحمل يقيناً أكبر من التاريخ. جاء في القرآن، وجاء في الرسالة، وجاء في التوحيد الذي رد الأشياء إلى مواقعها الصحيحة.
وحين يجيء الحق لا يعود الباطل قادراً على الإبداء ولا الإعادة. ليس له خلق ولا سلطان حقيقي، ولا يستطيع أن ينشئ حقيقةً أو يعيد ما أبطله الله.
الباطل يعيش عالّةً على الحق؛ يستعير بعض ألفاظه، ويتزين بشعاراته، ويخلط شيئاً من الصواب بكثير من الانحراف حتى يُقبل. ولو ظهر باطلاً خالصاً لنفرت منه الفطرة.
إنه لا يخلق نوراً، بل يتلاعب بالظلال.
ولا يبني إنساناً، بل يستثمر ضعفه.

ولا يمنح الحياة معنى، بل يخدر سؤال المعنى إلى حين.
وقد تكون للباطل جولة، لكنه لا يملك النهاية. يعلو حين يضعف أهل الحق عن حمل أمانتهم، ثم يتهاوى حين تُستعاد البصيرة وتنهض الإرادة.
(وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ).

ليس في الباطل خصوبة البقاء؛ لأنه منفصل عن الأصل الذي قام عليه الكون. قد يتكرر في صور مختلفة، لكن جوهره واحد: وعد لا يفي، وزينة لا تبقى، وقوة تأكل نفسها من الداخل.

المحطة الخامسة والأربعون

إن ضللت فعلی نفسي، وإن اهتديت فبالوحي
(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ).

في هذه الآية أدب رفيع مع الله وعدل مع النفس.
(إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي).

الضلال لا يضر الله، بل يرتد على صاحبه. كل خروج عن طريق الله جرح ينزله الإنسان بنفسه، وإن ظن لحظتها أنه يحقق مصلحته.

المعصية لا تنتقص من ملك الله شيئاً؛ إنها تنتقص من صفاء العبد وحرية وسلامة مصيره. والله حين ينهى لا يحجي سلطانه من الإنسان، بل يحجي الإنسان من نفسه.
ثم قال:

(وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي).

نسب تبعه الضلال إلى النفس، ورد نعمة الهدى إلى الوحي. وهذا مقام العبودية: لا يعجب المهتدي بنفسه، ولا يتوهم أن صفاء عقله وحده أوصله. لولا أن الله أنزل النور، وفتح له البصيرة، وثبت قلبه، لبقى يتخبط في الظلمات.

الهدى ليس إنجازاً شخصياً تتعالى به على الخلق، بل رحمة تستوجب الشكر والخوف من السلب. ومن رأى الهداية فضلاً رقى للعصاة، ودعا لهم، ولم يحول استقامته إلى منصة للاحتقار.

(إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ).

يسمع اعتراضات المكذبين، ويسمع جواب الرسول، ويسمع دعاء الباحث عن الحق ولو لم يحسن صياغته.

وهو قريب.

قريب من القلب حين يتردد، ومن التائب حين ينكسر، ومن المظلوم حين تعجز كلماته، ومن الداعية حين يستوحش من الطريق.

وليست قربته سبحانه كقرب المخلوق من المخلوق؛ تعالى الله أن يماثله شيء. إنه قرب يليق بجلاله، قرب علم وإحاطة وإجابة ورحمة، من غير تشبيه ولا تكييف.

ما أعجب أن تأتي صفة القرب بعد رحلة السورة بين السماوات والأرض، وملك داود وسليمان، وخراب سبأ، وحشود القيامة! فالرب الذي يملك هذا كله قريب من دعوة تخرج خافتهً من قلبك.

المحطة السادسة والأربعون

الفرع الأخير حين لا يبقى مهرب

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنَا فَلَا فَوْتَ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ).

بعد ثقتهم الطويلة، وسخريتهم من الوعد، واعتزازهم بالأموال والأولاد، تأتي اللحظة التي يسقط فيها كل تماسك مصطنع:

(إِذْ فِرْعَوْنَا).

الفرع لا يستأذن، ولا يترك لهم زمناً لإعادة صياغة مواقفهم. الحق الذي ظلوا يدفعونه إلى هامش حياتهم صار المشهد كله.

(فَلَا فَوْتَ).

لا نجاة، ولا سبق، ولا مكان خارج السلطان الإلهي. في الدنيا كانوا ينتقلون من أرض إلى أرض، ومن حيلة إلى حيلة، ومن كذبة إلى أخرى. أما هناك فقد انتهت المسافات التي توهم إمكان الهرب.

(وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ).

لا يحتاج الله إلى مطاردة أحد. مهما ابتعد الإنسان في الأرض، فهو قريب من قدرة الله. ومهما احتفى بالجدران والحراس، لم يخرج عن الملك.

قد يشعر المجرم أن مرور السنين جعله بعيداً عن جريمته، وأن الأدلة ضاعت، وأن الشهود رحلوا، لكنه لم يبتعد لحظة عن علم الله.

و«المكان القريب» يهدم وهم المسافة بين الفعل وجزائه. فكل عمل يحمل مصيره قريباً منه، وإن تأخر ظهوره.

المحطة السابعة والأربعون

إِيمَانٌ جَاءَ بَعْدَ انْتِهَاءِ زَمَنِ الْإِيمَانِ
(وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَإِنَّا لَلْمُتَنَافِسِينَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

الآن يقولون:

(آمَنَّا بِهِ).

الكلمة نفسها التي طُلبت منهم في الدنيا، لكن الزمن ليس هو الزمن، والمقام ليس هو المقام. كانوا قادرين على الإيمان بالغيب فاختاروا التكذيب، فلما صار الغيب شهادةً آمنوا اضطراراً.

الإيمان الذي يرفع صاحبه هو أن يختار الله قبل أن تُرفع الحجب، وأن يصدق الوعد وهو قادر على الإنكار، وأن يقاوم الهوى مع بقاء أبواب المعصية مفتوحة. أما بعد رؤية العذاب، فلم يعد التصديق امتحاناً؛ صار اعترافاً بالواقع الذي لا يمكن دفعه. (وَأَنَّا لَلْمُتَنَافِسِينَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

كيف لهم أن يتناولوا الإيمان النافع وقد ابتعدوا عن موطنه؟ إنهم كمن يريد التقاط شيء قريب من موضع تركه، لكنه صار هو في مكان بعيد. كانت التوبة قريبةً حين كانت أنفاسهم تجري، والآيات تُتلى، والرسول ينذر، والعقل قادراً على النظر. لكنهم هم الذين ابتعدوا خطوةً بعد خطوة، حتى إذا أرادوا مد اليد لم تبلغ ما يطلبون.

والخطر في التسويف أنه لا يبدو رفضاً نهائياً. يقول الإنسان: سأَتُوبُ يوماً، وسأُردُّ الحقَ لاحقاً، وسأُصلح قلبي حين تهدأ ظروفِي. لكنه لا يرى أن كل تأجيل يصنع مسافة، وأن القلب الذي يعتاد الإعراض قد لا يجد غداً الرغبة نفسها في العودة. التوبة ليست قراراً مضموناً نضعه في نهاية الخطّة؛ إنها توفيق قد يُفتح الآن، ولا يدري الإنسان هل يُفتح له مرة أخرى.

المحطة الثامنة والأربعون

قذفوا بالغيب من مكان بعيد

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ).

سبب بعدهم أنهم كفروا من قبل، حين كان الإيمان ممكناً ونافعاً.
ولم يكتفوا بالكفر، بل كانوا:

(يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ).

يتكلمون فيما لا يعلمون: يقولون عن الرسول ساحر أو كاذب أو مجنون، وينكرون البعث،
ويزعمون أنهم لن يعذبوا، ويصدرون أحكاماً على الغيب دون وحي أو برهان.

إنه تصوير بديع لمن يرمي سهماً نحو هدف لا يراه ومن موقع بعيد؛ كيف يصيبه؟
هكذا تكون الآراء حين تنفصل عن العلم: قذائف تتجه إلى المجهول، لا يملك أصحابها إلا
الظنون، ومع ذلك يتحدثون بلهجة اليقين.

وما أكثر القذف بالغيب في حياة الإنسان! يحكم على نيات الناس دون بينة، ويزعم أن
المستقبل سيكون كما يشتهي، ويتكلم عن مراد الله دون علم، ويقطع بالمصائر كأنه اطلع
على القلوب والخواصم.

الإيمان لا يمنح صاحبه الجرأة على الغيب، بل يعلمه التواضع أمامه. نقف حيث أوقفنا
النص، ونؤمن بما أخبر الله، ونسكت عما استأثر بعلمه.
والمفارقة أن السورة قالت قبل آيات: (إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـٰمُ الْغُيُوبِ)، ثم قالت هنا
عنهم: (يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ).

الله يقذف بالحق عن علم كامل بالغيب، وهم يقذفون في الغيب عن جهل وبعد. قذف
الحق يصيب موضعه، وقذف الظن يعود على صاحبه بالخيبة.

المحطة التاسعة والأربعون

حين يُحال بين القلب وما يشتهي
(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ).
تختم السورة بحاجز نهائي:
(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).

حيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وبين التوبة، وبين النجاة، وبين الأموال والأولاد التي ظنوا أنها حصون، وبين اللذات التي عاشوا يطاردونها.
يا لها من خاتمة موجعة لمن جعل حياته كلها حركة نحو الشهوة! ظل يجمع ما يشتهي، حتى جاء يوم حيل فيه بينه وبين كل ما جمع.
في الدنيا يستطيع الإنسان أن يتدارك، وأن يعود، وأن يستغفر، وأن يصلح ما أفسد ما دام في العمر بقية. أما حين يغلق باب العمل، فليس أشد من أن تبقى الشهوة حاضرةً وتتعلم القدرة على بلوغها.
وقد لا ينتبه الإنسان إلى قيمة القدرة على الطاعة إلا إذا سلبها. ما دام يستطيع أن يسجد فالسجدة قريبة، وما دام يستطيع الاعتذار فرد المظلمة ممكن، وما دام اللسان يتحرك فلاستغفار في المتناول. هذه ليست أموراً مؤجلة بلا ثمن؛ إنها فرص قد يُحال بين الإنسان وبينها.

(كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ).

ليست هذه نهايةً جديدةً في التاريخ. لقد انتهى أمثالهم المصير نفسه: تشابهت القلوب، فتشابهت النهايات. اختلفت الأسماء والأزمنة، لكن سنة الله لم تتغير.
وأشياءهم هم الذين شايعوه في التكذيب والجحود؛ فالإنسان ينتمي في ميزان المصير إلى من يشبههم قلبه وعمله، لا إلى من يرفع أسماءهم على لسانه فحسب.
ثم تكشف الكلمات الأخيرة أصل الداء:

(إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ).

لم يكن شكاً هادئاً يدفع إلى البحث، بل شكاً مقلقاً مشوباً بالتهمة والاضطراب. شكاً اتخذوه منزلاً دائماً، ولم يجعلوه جسراً إلى اليقين.

فالشك نوعان: شك باحث يتألم من جهله ويطلب الدليل بصدق، وهذا قد يكون بداية هداية. وشك متكبر يتخذه صاحبه ذريعةً لتعليق التكليف؛ فلا يريد جواباً، لأنه يستفيد من بقاء السؤال مفتوحاً.

لقد كانت الأدلة حولهم، والرسول بينهم، والقرآن يُتلى عليهم، وآثار الأمم من قبلهم، والسماء والأرض أمامهم، ولكن المشكلة لم تكن قلة النور؛ بل إغلاق النافذة. وهكذا تنتهي السورة لا عند نقص البرهان، بل عند قلب اختار أن يبقى في الارتباك حتى حيل بينه وبين اليقين النافع.

الخاتمة

النعمة بين يدين: يدٌ تشكر ويدٌ تجحد
بدأت سورة سبأ بالحمد:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

وسارت بنا في معرض واسع للنعم والمواقف: داود عليه السلام والجبال تردد معه التسبيح، والحديد يلين في يده؛ وسليمان عليه السلام تحمل الريح أمره، ويسيل له النحاس، وتعمل بين يديه الجن؛ وآل داود يُنادون أن يحولوا الشكر إلى عمل. ثم وقفت بنا عند سبأ: جنتان عن يمين وشمال، وبِلدة طيبة، ورب غفور، وطرق مقدرة، وقرى متقاربة، وأسفار آمنة. لكنهم أعرضوا، فتغير الماء، وتبدلت الثمار، وتمزقت الجماعة، وصاروا أحاديث.

لقد كان داود وسبأ أمام النعمة نفسها من حيث حقيقتها: كلاهما متلقٍ لعطاء الله. لكن داود رد النعمة إلى المنعم، فرددت الجبال معه الحمد. وسبأ فصلت النعمة عن المنعم، فأنفصل بعضها عن بعض حتى تفرقت الأمة.

وهذا هو القانون الروحي الذي تنبض به السورة:

ليست النعمة فيما تملكه فقط، بل في قدرتك على رؤية الله من خلال ما تملك. قد يكون لدى الإنسان كثير، لكنه محروم من شهود الفضل، فيعيش فقيراً داخل الوفرة. وقد يكون نصيبه قليلاً، لكن قلبه يرى في القليل عناية الله، فيعيش غنياً بالشكر. وتعلنا السورة أن الشكر ليس ثناء اللسان وحده:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا).

الشكر أن تعمل النعمة في الاتجاه الذي يحبه واهبها. أن يصير العلم هداية، والمال رحمة، والقوة عدلاً، والكلمة صدقاً، والموهبة خدمة، والأمن عمراناً، والحضارة محراباً واسعاً تتجلى فيه العبودية.

وتعلمنا أن القوة لا تمنح صاحبها علم الغيب. فقد مات سليمان عليه السلام والجن تعمل لا تعلم موته، حتى كشفت دابة الأرض ضعف دعواهم. وما بدا ملكاً هائلاً ظل معلقاً بأمر الله، يبدأ بإذنه وينتهي بقضائه.

وتعلمنا أن الحضارات لا تسقط من خارجها أولاً؛ إنها تبدأ السقوط حين يتصدع فيها معنى الشكر. ينحرف الضمير قبل أن ينفجر السد، وتفسد العلاقة بالله قبل أن تفسد علاقة الإنسان بالأرض.

وتعلمنا أن المترفين كثيراً ما يعادون الوحي لأنهم يسمعون فيه سؤالاً عن مصدر أموالهم ومصارفها، وعن حقوق الضعفاء، وعن حدود سلطانهم. فيجعلون كثرة الأموال والأولاد برهاناً على الكرامة، فيأتي القرآن ليقرر أن القرب لا يشتري:

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا).

وتكشف السورة خواء كل معبود من دون الله: لا يملك مثقال ذرة، ولا حصّة في الملك، ولا يعين الله، ولا يشفع إلا بإذنه. ثم تجمع العابدين والمعبودات يوم القيامة، فتسقط شبكة الأوهام، ولا يبقى للإنسان إلا عمله.

وتدعونا السورة إلى لحظة صدق نخرج فيها من ضجيج الجماعة:

(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ أَوْ تَرْجِعُوا صَعُودَ الَّذِي صَعَدْتُمْ بِهِ).

أن نقف لله، لا لما ورثناه، ولا لما يصفق له الناس، ولا لما يحفظ مصالحنا. فالحقيقة لا تمنح وجهها لمن ينظر إليها بعين الهوى؛ إنما تتجلى لمن قام لله ثم تفكر.

وفي خاتمها تحذرننا من التأجيل؛ فقد يأتي يوم يقول فيه الإنسان: (أَمَّا بِهِ)، ولكن من مكان بعيد. ليس كل إيمان ينفع، ولا كل ندم ينقذ. إنما القيمة في أن تؤمن حين يكون للغيب حجاب، وثوب حين تستطيع العودة، وتشكر قبل أن تتحول النعمة إلى ذكرى.

سورة سبأ ليست رثاءً لسدّ انهار، بل إنذار لكل سدّ داخلي تأكله دابة الجحود في صمت. وليست حديثاً عن جنتين تبدلتا، بل عن كل نعمة يمكن أن تتغير حين يتغير القلب.

ولست قصة قوم تفرقوا في التاريخ، بل مرآة لكل أمة تستخف باجتماعها وأمنها ورزقها،
حتى لا تعرف قيمة ما بين يديها إلا بعد أن يصير خبراً في أفواه الآخرين.
إنها سورة تقول للإنسان:

لا تغتر بما أعطيت؛ فما عندك فضل.
ولا تيأس مما منعت؛ فربك حكيم خبير.
ولا تحف على ما أنفقت في رضاه؛ فهو يخلفه.
ولا تجعل بينك وبينه ندأ؛ فلا أحد يملك ذرة.
ولا تؤجل رجوعك؛ فقد يُحال بينك وبين ما تشتهي.
ثم تعيدك بعد هذه الرحلة كلها إلى كلمتها الأولى:
الحمد لله.

الحمد لله حين تأتي النعمة، كيلا تطغى.
والحمد لله حين تتأخر، كيلا تيأس.
والحمد لله حين نفهم الحكمة.
والحمد لله حين تبقى الحكمة وراء الحجاب.
فله الحمد في الدنيا بما عرفنا من فضله، وله الحمد في الآخرة حين نرى أن كل ما جرى
كان تحت سلطان الحكيم الخبير.
وبهذا اكتملت الرحلة التدرجية في آيات سورة سبأ كلها، من الآية الأولى إلى الآية الرابعة
والخمسین، والحمد لله رب العالمين.